

بوشكين

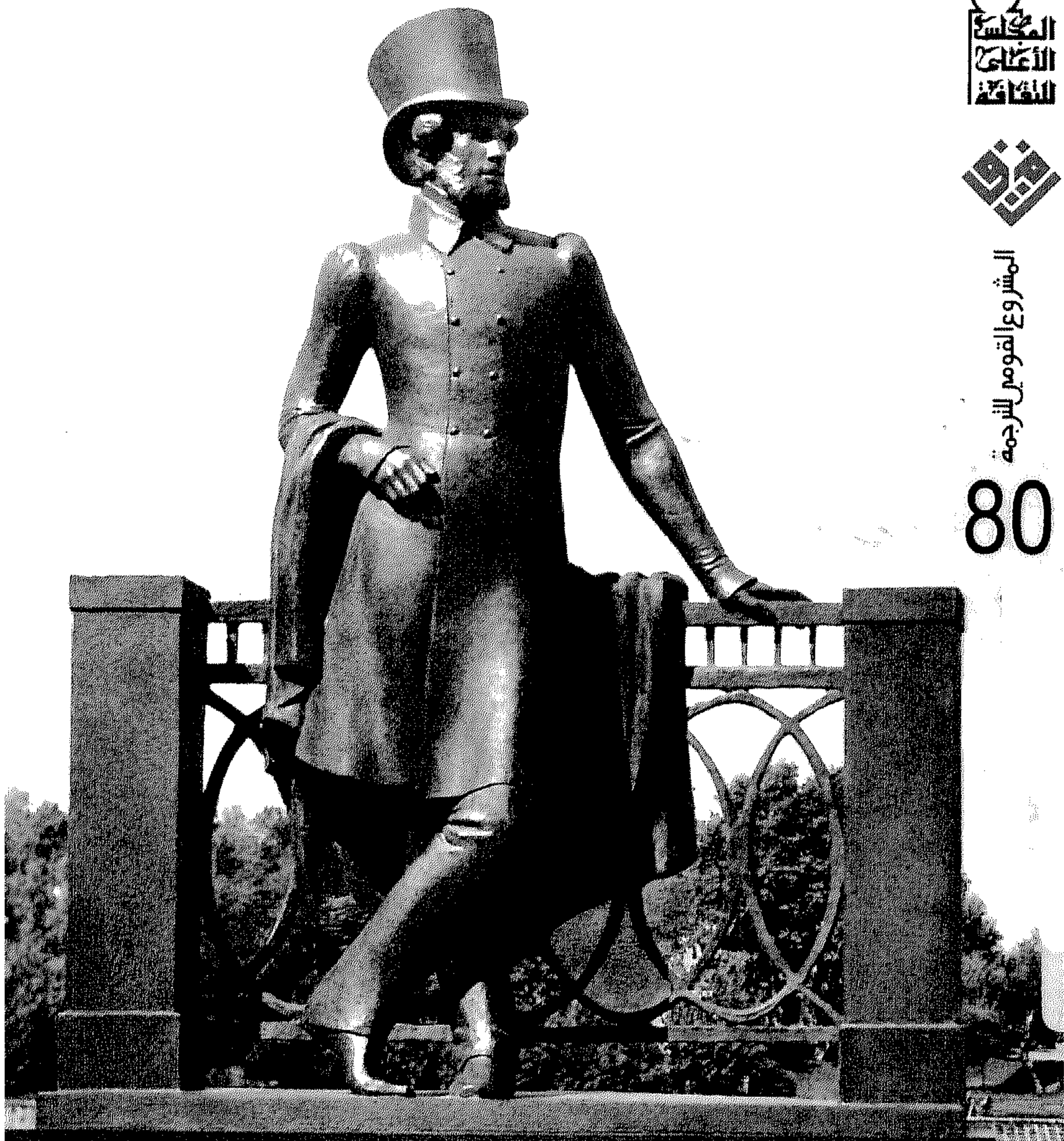
عندنا فورة الدموع ومختارات أخرى تقديم وترجمة مكارم الغمري

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

80



المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

بوشكين عند «نافورة الدموع»

ومختارات أخرى

(الجزء الأول)

ترجمة وتقديم

د. مكارم الغمري

المجلس
الأعلى
للثقافة

١٩٩٩

اعتمدنا في ترجمة هذه المختارات على:

أ.س. بوشكين

المؤلفات الكاملة في عشرة أجزاء

دار نشر (العلم) - الطبعة الرابعة

А. С. ПУШКИН

ПОЛНОЕ СОБРАНИЕ

СОЧИНЕНИЙ

В ДЕСЯТИ ТОМОВ

* * *

ИЗДАНИЕ ЧЕТВЕРТОЕ

ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
ЛЕНИНГРАДСКОЕ ОТДЕЛЕНИЕ
ЛЕНИНГРАД 1977

المجلس الأعلى للثقافة / المشروع القومي للترجمة

بوشكين عند «نافورة الدموع» ومختارات أخرى

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى / ١٩٩٩ م



ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)

(الإنسان والفنان)

تقديم

يتزامن ظهور هذه المختارات واحتفاء الأوساط الأدبية فى روسيا وخارجها بالمتوية الثانية لميلاد شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين. ورغم مرور عشرات السنين على النهاية المأساوية لأكبر شعراء روسيا، إلا أنه ما يزال - حتى وقتنا هذا- «بداية البدايات» فى الشعر الروسى.

ولا ينبع الوصف الدارج لبوشكين «بشمس» الشعر الروسى أو «بداية البدايات، من فراغ، بل هو وثيق الصلة بالمكانة المضيئة والخالدة التى يحتلها إنتاجه فى تاريخ الأدب الروسى، فالحديث عن الشعر الروسى الكلاسيكى أو الشعر الحديث لا يخلو من الإشارة إلى ارتباطه بالتراث الشعرى لبوشكين الذى يبرز لا كعقريّة شعريّة فحسب، بل وكظاهرة فنية حوت بداخلها أهم تيارات الأدب الروسى الكلاسيكى، فصارت بمثابة نبع لا ينضب أمام الأجيال التى تعاقبت تنهل من رحيقه، مما جعل الكاتب الروسى الشهير دستويفسكى يقدم على الاعتراف فى تواضع جم بأن «كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هدى بوشكين، ولم تصنع الجديد من

عده، فكل البدايات كانت منه أشار بها علينا، فضلاً عن أننا صنعنا أقل مما
'شار به علينا، ولكن فى المقابل فالذى صنع جاء مستفوقاً ثرياً، وفى عمق،
ووضوح، وكان بفضله وبدرجة كانت ستجعل بوشكين يعترف به»^(١).

نتوقف فى هذه المقدمة عند الملامح العامة فى السيرة الذاتية
والإبداعية لبوشكين: شاعر روسيا الأكبر والذى يعد من أكثر أدباء روسيا
حباً للشرق العربى وتأثراً به، وقد سبق أن تناولنا بالتحليل والدراسة هذا
الجانب من إنتاجه فى الفصل الخاص به فى كتابنا «مؤثرات عربية وإسلامية
فى الأدب الروسى» الصادر عن عالم المعرفة فى الكويت فى عام ١٩٩١.

-١-

يا أطراف موسكو، يا أطراف موطنى

حيث فى فجر سنواتى الزاهرة

قضيت ساعات ذهبية لامبال

لا أعرف حزناً ولا ضيماً

بوشكين

موسكو فى بداية القرن الماضى، مدينة تعج بالصخب وخليط
الألوان والمشارب، منازل الإقطاع الفسيحة، قصور النبلاء الرائعة، جنباً إلى

(١) ف. دستوفسكى، المؤلفات الكاملة، ليننجراد، ١٩٢٩، ج١٢، ص ٢٠٨.

جنب مع المنازل البسيطة لبسطاء القوم. حداثق فخمة تجاورها بساتين القرى المحيطة. وفي قلب موسكو يقف الكرملين والميدان الأحمر يعبقان برائحة القدم، والتاريخ، والأساطير.....

وإلى موسكو يفد شتاءً سكان الضياع من الضواحي فتصيح أصوات الموسيقى، والحفلات الصاخبة فى أرجاء المدينة الفسيحة، وتمتلئ بالحياة والحركة. ذلك هو الجو العام الذى تفتحت فيه موهبة بوشكين الشعرية، حيث ولد فى أسرة ضابط متقاعد ينتمى إلى طبقة النبلاء الأرستقراطية.

وجد بوشكين نفسه منذ الطفولة المبكرة فى ظروف ملائمة لتشكيل الموهبة الشعرية، فقد كان والد الشاعر نفسه مغرمًا بالشعر، وكانت لديه بعض التجارب الشعرية المكتوبة بالفرنسية، كذلك كان عمه فاسيلي بوشكين أديب على قدر معقول من الشهرة، وبالإضافة إلى ذلك كان منزلهم مقصداً لكبار الشعراء والكتاب، وكان من بينهم شعراء كبار من أمثال كارمازين، وچوكوفسكى، وباتوشكوف، ولذا لم تكن كلمة «شاعر» بالنسبة لبوشكين الطفل مفهوما مجردا، فهو لم يكن يقرأ فقط الشعراء الآخرين، بل كان أيضا يسمعهم وهم يقرأون بأنفسهم، وقد كان لكل هذا تأثير كبير عليه، ولكن العامل الضخم والفريد والحاسم كان فى موهبته الذاتية»(٢)

(٢) ب. بورسوف، «مسير بوشكين»، ليننجراد، ١٩٨٦، ص ١٩.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الأسرة تمتلك مكتبة ثرية تحوى روائع
لأدب الروسى والعالمى.....

سارت تربية بوشكين فى طفولته فى خطين متوازيين: خط يفتح
على الثقافة الأوروبية وخاصة الفرنسية التى كان يجيدها لغة وثقافة، حيث
تربى كأقرانه من أبناء الطبقة النبيلة الأرستقراطية على أيدي مربين
فرنسيين.

وخط يلتحم بالتراث القومى تشربه من امرأتين كان لهما فضل كبير
فى التنشئة الروحية والقومية لشاعر المستقبل، أما الأولى فهى مربيته
الروسية، الفلاحة البسيطة التى اعتقت من الرق لكنها آثرت مع ذلك البقاء
مع سادتها لرعاية أطفالهم، ثم أحفادهم، والثانية الجدة ماريا هانيبال حفيدة
الجد إبراهيم هانيبال، هاتان المرأتان كانتا منبع الذى نهل منه شاعر المستقبل
الحكاية الشعبية، والمأثورات، والأغنية الشعبية.

-٢-

كان للجد إبراهيم هانيبال مكانة عزيزة فى قلب الشاعر بوشكين،
فقد كتب بوشكين فى ملاحظاته حول الفصل الأول من روايته الشعرية
«يفجيني اونيجن»: «فى روسيا حيث تتوارى للحال ذكرى الناس الرائعين
بسبب قلة النشرات التاريخية، فإن حياة هانيبال الغريبة معروفة فقط حسب
الحكايات العائلية. ولذا نأمل مع الوقت أن نصدر قصة حياته الكاملة»^(٣)

(٣) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة فى عشرة أجزاء، (الطبعة الرابعة) ج٥، ليننجراد، ١٩٧٨، ص ٤٣١.

لقد اجتذبت بوشكين بشدة رواية قرابته من إنسان «إفريقى الدماء»، كما يقول عن نفسه، لاسيما وقد أوحوا إليه منذ طفولته بأن دمائه المختلطة كان لها شأن فى موهبته المبكرة، فما أن شب بوشكين حتى أخذ يفتش عن حقيقة هذا النسب، بحث بوشكين عن تفاصيل قصة الجد إبراهيم فى كل الوثائق التى تناولت نسبه، وبخاصة المراجع التى تناولت وصف التفاصيل الخاصة بموطن إبراهيم والقصة التى اختطف بها من وطنه، وكتب يقول:

«إن المؤلف من جهة الأم إفريقى الأصل، وقد اختطف جده إبراهيم هانيبال فى عمر الثامنة من شواطئ إفريقيا ونقل إلى القسطنطينية. وبعد أن حصل عليه السفير الروسى أرسله كهدية إلى بطرس العظيم، الذى عمده فى فيلتي. وقد قدم شقيقه فى إثره إلى القسطنطينية، ثم إلى بطرسبرج عارضا فدية لاسترداده، لكن بطرس الأول لم يوافق على إعادة ابنه بالعمادة. وحتى سنوات الكبر العميقة كان هانيبال مازال يتذكر بعد إفريقيا، وحياة الأبهة عند والده، وإخوته التسعة عشر، وكان الأصغر بينهم، كان يتذكر كيف كانوا يقتادونهم إلى الوالد وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم، بينما هو الوحيد بينهم كان يسير حرا، ويسبح فى نافورة دار والده، كان يتذكر أيضا شقيقته المحبوبة لاجان، التى سبحت طويلا وراء السفينة التى ابتعدت به.

وفى عمر الثامنة عشر أرسل من قبل بطرس إلى فرنسا، حيث بدأ خدمته فى جيش الوصى على العرش، ثم عاد إلى روسيا برأس مشقوقة

ورتبة الملازم الفرنسية، ومنذ ذلك الحين كان موجودا في حرس الإمبراطور الخاص لا يفترق عنه^(٤)».

لقد تعددت الروايات التي تناولت وصف الجدد، والوطن الأصلي له إلى أن تمكن العالم الأنثروبولوجي د. أنوشتين في تسعينيات القرن الماضي من إثبات الانتماء العرقي والقومي لإبراهيم هانيبال؛ حيث أكد أنه كان «حبشى الجنسية وله بشرة سمراء داكنة»^(٥) (وهو رأى يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحري).

التحق إبراهيم هانيبال بسلاح المدفعية، حيث كان يشرف على تعليم الضباط الجدد، وتدرج في الوظائف العسكرية حتى بلغ رتبة الجنرال وأصبح قائداً لسلاح الهندسة العسكرية في بطرسبرج، وقد نال إبراهيم الأوسمة العسكرية الرفيعة، وتمكن من اقتناء ضيعة شاسعة، وحصلت عائلته - فيما بعد - على لقب النبالة. تزوج إبراهيم مرتين، فشلت الزيجة الأولى، وقبل أن تتم إجراءات الانفصال أقدم على الزيجة الثانية التي أثمرت سبعة أبناء منهم الابن يوسف الذي أنجب جدة بوشكين.

تأثر بوشكين - بشدة - بقصة الجدد الذي اقتلع من جذوره وحرّم نعمة الأهل والوطن، ومع ذلك تمكن بذكائه ومهارته من أن يحرز مكانة

(٤) المرجع السابق، الصفحة السابعة.

(٥) عن ن. تيلويتوفا: «آل هانيبال أجداد بوشكين» في كتاب «الليالي البيضاء» مجموعة دراسات. تحرير سلوبوجان. ليننجراد، ١٩٨٧، ص ٢٧٦.

اجتماعية ومادية مرموقة في بلاد الغربية، وأن يحصل على لقب «فارس النجمة الذهبية»، وهو لقب كان لا يمنح إلا للقليلين من المواطنين الروس الأصليين.

كان بوشكين شديد الاعتزاز بنسب أجداده، فقد كان يعده «التركة الوحيدة» التي حصل عليها منهم، ولذا خوفاً من ضياع «ذكرى الناس الرائعين» - على حد تعبير الشاعر - خلد ذكرى الجد إبراهيم في أكثر من مؤلف يأتي على رأسها القصة التاريخية الطويلة «عبد بطرس العظيم».

-٣-

ودّع بوشكين موسكو مسقط رأسه للانتحاق «بالليسيه» للدراسة، وكان عمره آنذاك الثانية عشرة، وكانت الليسيه الكائنة في إحدى ضواحي مدينة بطرسبرج بمثابة مؤسسة علمية فريدة بالنسبة لذلك الوقت، فقد كانت منوطة بإعطاء تعليم خاص لأبناء الصفوة، حيث اختير للتدريس لها الاساتذة الأكفاء، وشملت برامجها التعليمية مواداً لا تخص فقط مرحلة التعليم الثانوي، بل والتعليم العالي.

وقد تحولت الليسيه وقت دراسة بوشكين (١٨١١-١٨١٧) إلى مركز للنشاط الأدبي وملتقى لكبار الأدباء؛ فكانت تعج بالنشاط الأدبي، حيث كان طلابها يصدرون المجلات والكتب، ويتناقشون في قضايا الفن والأدب والسياسة، وكان الشعر يقرض في الليسيه فراداً وفي جماعات، وسرعان ما صار بوشكين محوراً للنشاط الأدبي في الليسيه.

لعبت سنوات الدراسة في الليسيه دورا كبيرا لا في تكوين بوشكين كشاعر فحسب، بل وأيضا في تشكيل وعيه القومي وشعوره كمواطن، فقد كانت مركزاً لالتقاء رواد الحركة الاجتماعية، وكان من بينهم الشاعر والفيلسوف وفيما بعد عضو الانتفاضة الديسمبريه تشاداييف الذي كان في ذلك الوقت ضابطاً بكتيبة الفرسان، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين الشاعر بوشكين في وقت الدراسة، وقد كان لهذه الصداقة فيما بعد أثرها البالغ على فكر بوشكين الذي كان معجبا بتشاداييف إعجابا كبيرا و«كان يسمعه - عادة - بكل كيانه»^(٦)

وفي الليسيه كانت أيضا بداية الرحلة الإبداعية لأكبر شعراء روسيا؛ حيث خرجت باكوزة أشعاره «في سنوات النهضة القومية الوطنية التي بعثتها الحرب الروسية التابليونية في عام ١٨١٢ التي ايقظت المشاعر الوطنية للشاعر الشاب»^(٧).

وفي الليسية كذلك بدأ بوشكين كتابة «روسلان ولودميلا» التي افتتحت عهداً جديداً آذن بإدراج التعبير الشعبي في المؤلفات الأدبية في الأدب الروسي.

تزامنت بداية الرحلة الإبداعية لبوشكين مع حركة انعطاف التيار الأدبي في روسيا عن المذهب الكلاسيكي الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر، وفي غضون ذلك حلت فترة سُميت بالفترة «الكارمازينية» نسبة إلى اسم الشاعر كارمازين أحد معلمى بوشكين، وقد اعتبر نتاج «الكارمازينية»

(٦) عن ب. تينيانوف، «بوشكين»، مينسك، ١٩٨٨، ص ٥٣١.

(٧) عن س. بيتروف، تاريخ الأدب الروسي، ج١، موسكو، ١٩٧٠ (الطبعة الثالثة)، ص ١٧٩.

خطوة إلى الأمام بالنسبة للكلاسيكية السابقة لها في اتجاه الاهتمام بعالم الإنسان الفرد، وتطوير الأسلوب الشعري بتحريره من البلاغة الخطابية للمذهب الكلاسيكي، والجنوح نحو البساطة في التعبير.

وعلى خلاف نتاج الكلاسيكية الذي اهتم بالموضوعات الكبيرة، والقصائد البطولية جاء نتاج « الكارمازينيين » مرتبطاً بالغنائيات العاطفية، والقصائد التاريخية الرومانتيكية، مما جعله - في الأعم - قاصراً على دائرة ضيقة من القراء من رواد الصالونات الأدبية.

وقد بدأ بوشكين طريقه الفني، في الليسييه مرتبطاً بجماعة «الكارمازينية» في صراعها مع أنصار الكلاسيكية. وظهر نتاجه الأدبي المبكر يحمل - في الأعم - طابعاً غنائياً. ومع ذلك فقد ظهرت في كتاباته المبكرة محاولات الشاعر للخروج عن دائرة الغنائيات نحو الشمول الأكثر اتساعاً للواقع.

ثمة وجهات نظر مختلفة تجاه تقييم نتاج بوشكين في مرحلة الدراسة في الليسييه، فبينما شاهد فيه البعض - مثل الناقد بيلنسكي - مرحلة «التلمذة»، نجد أن البعض الآخر - مثل الناقد تينيانوف - يعبّر عن مرحلة «مكتملة» في أشعار الشاعر^(٨).

-٤-

قوبلت باكورة أشعار بوشكين بترحاب كبير، وخلع عليها كبير الثناء بعد أن شدت إليها الأنظار بجمالها وصدقها، ومع نهاية الدراسة في

(٨) انظر ب. بورسوف، مصير بوشكين، مرجع سابق، ص ٣١.

الليسيه كان قد بات واضحاً أن بوشكين قد صار مستعداً تماماً لتبوء المكانة التي تنتظره باعتلاء عرش الشعر الروسى الذى توج ملكاً عليه حتى يومنا هذا.

وفى مدينة بطرسبرج كانت محطة الشاعر الثانية بعد الانتهاء من سنوات الدراسة فى الليسيه، وكان ذلك بداية مشوار الحياة العملية فى لجنة الشؤون الخارجية فى بطسبرج فى عام ١٩١٧.

انخرط بوشكين فى جو الحياة الأدبية والاجتماعية لمدينة بطرسبرج، مدينة الليالى البيضاء والقصور والميادين البديعة، ملهمة الشعراء والفنانين، فكان يشارك فى نشاط جماعة «ارزماس الأدبية» التى صار واحداً من أعضائها النشطاء، ثم بعد ذلك صار عضواً فى الجماعة الأدبية «اللمبة الخضراء»، كما كان يحضر عروض المسرحيات، والحفلات، ولقاءات المجتمع العلوى والتى كان يقبلها على مضض، فقد كان «طيب القلب مخلصاً فى مشاعره تجاه الناس، لذا كان عادة لا يجرؤ فى علاقات المجتمع العلوى على رفض أى حفلة، وفى غضون ذلك كانت هذه العلاقات العلوية تجلب له الكثير من الألم»^(٩).

(٩) بوشكين فى ذكريات المعاصرين، إ. فاتوروف وآخرون، موسكو، ج ٢، ١٩٨٥، ص ٥١.

كانت بطرسبرج تعيش فى تلك الفترة حالة من النهضة القومية فى إطار الانتعاش العام الذى أثمرته نتائج الحرب الروسية النابليونية (١٨١٢ - ١٨١٤) واجتياح جيوش نابليون، واتضحت هذه المشاعر - بشكل خاص - بين صفوف المثقفين النبلاء الذين كانوا يمثلون صفوة الفكر فى تلك الآونة، والذين تربوا على أفكار التنوير الغربى، والروسى وأفكار الثورة الفرنسية، وساهموا بشكل مباشر فى الحرب الروسية النابليونية فى أردية الضباط. وفى إطار ظروف النهضة القومية هذه انبثقت من بين طليعة النبلاء المثقفين فى تلك الآونة جمعيات سرية سياسية كانت تعد العدة للإطاحة بالحكم القيصرى، ونظام القنانة الذى يستعبد الفلاح. تلك كانت بدايات الحركة «الديسمبرية» أول حلقة روسية ثورية تحريرية فى تاريخ روسيا فى القرن الماضى، والتى كان فى مقدمة أهدافها تحرير الشعب من نظام القنانة فى إطار النظام الإقطاعى النبيل، وبذا فإن الديسمبريون قد وقفوا ضد الركائز الأساسية لطبقتهم الخاصة.

وفى غضون ذلك فإن الأدب الروسى كان يعايش نبضات الديسمبريين، وليس صدفة أن العديد من أعضاء الحركة الديسمبرية كانوا من بين صفوف الأدباء.

ورغم أن بوشكين لم يكن شريكاً لحركة الديسمبريين، إلا أن أشعاره فى فترة عمله فى بطرسبرج عبرت عما يجول فى خاطر الحركة الديسمبرية، واتسمت بالمذاق الوطنى، وبروح الاحتجاج ضد الظلم

الاجتماعى، وفى غضون ذلك بررت فكرة الحرية كموضوع رائد فى أشعاره، ولعل قصائد بوشكين «الحرية» ١٨١٧، «إلى تشاداييف» ١٨١٨ القرية (١٨١٩)، هى تجسيد لهذه الفكرة، فقد عبرت عن الاحتجاج ضد الظلم، والقنانة، والحكم الاستبدادى.

وجدت أشعار بوشكين المحبة للحرية مناخاً طيباً فى البيئة المحيطة بها، فانتشرت انتشاراً صاروخياً بين فئات الشعب المختلفة، واكتسبت شعبية متزايدة أثارت ضيق القيصر وحنقه، فقرر نفيه إلى سيبيريا ثم خففت العقوبة بالنفى إلى الجنوب بفضل وساطة أصدقاء بوشكين الشعراء: جلينكا، جوكوفسكى، كارامازين.

شهد التيار الأدبى فى روسيا فى العقدين الأولين من القرن التاسع عشر بدايات الحركة الرومانتيكية فى إطار من تبادل رد الفعل والتفاعل مع أنظمة جمالية متعددة مثل الكلاسيكية، والعاطفية، والتنوير. وقد تلخص البرنامج الإبداعى للرومانتيكية فى روسيا فى عشرينيات القرن الماضى فى «تجاوز الكلاسيكية بتجريبها ومعيارياتها، وفى تأكيد ذاتية الإبداع والمحسوس والحرية»^(١٠)

(١٠) ج. بوسيلوف، «مشاكل التطور التاريخى للأدب»، موسكو، ١٩٧٢، ص ١٠٥.

وقد تمكنت الرومانتيكية الروسية فى عشرينيات القرن الماضى من أن تغدو قوة محرّكة ورائدة فى الحياة الأدبية. ويعتبر الشاعر بوشكين شخصية رئيسية، بل ومركزية فى الحركة الرومانتيكية الروسية، فقد احتوت الرومانتيكية الجزء الأكبر من إنتاج بوشكين، كما احتفظت لنفسها بحيز من البقاء داخل مؤلفات بوشكين الواقعية نفسها.

حملت رومانتيكية بوشكين الكثير من سمات الحركة الرومانتيكية الروسية بخاصة، والأوربية بعامة ففيها نجد الخيال والحلم اللذين يجسدان المثل الأعلى الشاعرى للرومانتيكية، ونجد المقابلة بين الواقع الفعلى الذى يتمرد عليه الرومانتيكى والواقع الحلم الذى ينشده، وفيها نجد الطبيعة، وقوى ما وراء الطبيعة، والأسطورة والتاريخ.

وتجسد رومانتيكية بوشكين الشاعر الإنسانية «غير العادية» من خلال بطل بوشكين الرومانتيكى الذى تصطرع روحه بالرغبات العارمة، ويتجسد من خلاله مثال الشاعر الأعلى فى الحب، والعدالة، والخير، والحرية.

وتعتبر فترة منفى بوشكين فى الجنوب (١٨٢٠-١٨٢٤) من أهم فترات تطور الرومانتيكية فى إنتاجه، فقد شيدت فى الأعوام (١٨٢٠-١٨٢٣) أعظم نماذج غنائياته السياسية، معظم نتاجه من البؤئيم (القصة الشعرية)، وذلك مثل «أسير القوقاز» (١٨٢١)، «الإخوة قطاع الطريق»

(١٨٢٢)، «نافورة باختشى سراى» (١٨٢٣). وقد اختتم البؤئيمات الجنوبية «بالعجر» التى عمل فيها بوشكين مؤخراً فى عام ١٨٢٤ فى اوديسا ثم فى ميخائيلوفسكى.

لقد تجاوزت طبيعة الجنوب الثرية، وحياة شعوبه الشرقية التى تعبق بالتاريخ القديم مع معطيات تطور الرومانتيكية فى مسيرة إبداعه، فضلاً عن ولعه بإنتاج بايرون فى تلك الفترة الذى كان له أثره الكبير على الرومانتيكية فى إنتاجه.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت فترة الإقامة فى الجنوب فرصة لالتقاط الأنفاس من الحياة الصاخبة فى بطرسبرج التى لم تكن ترق للشاعر، والابتعاد عن طبقة المجتمع العلوى بكل ما كانت تسببه من معاناة له. وتحمل بؤيما «أسير القوقاز» طابع التعبير عن الذات، وذلك من خلال صورة البطل الباحث عن الحرية والموجود فى صدام وتناقض مع الواقع، وبوشكين يقدم حلاً لهذه المشكلة التى يقع فيها البطل بالهروب الرومانتيكى إلى عالم الشرق حيث يجد البطل فى طبيعة الشرق الساحرة ملاذاً للنفس.

وإلى جانب الملمح الغنائى «لأسير القوقاز» أورد بوشكين وصفاً لطبيعة القوقاز يتسم بالإخلاص الشديد لوصف الملامح القومية المميزة للمكان ومظاهر الحياة به، ومن هذه الزاوية جسدت بؤيما «أسير القوقاز» ملمحاً هاماً من سمات الرومانتيكيين الروس.

وقد نُظر إلى «أسير القوقاز» بوصفها علامة هامة في طريق تطور الأدب الروسى، فقد «أعطت نموذجاً للمؤلف الرومانتيكى المحب للحرية من الطراز الغنائى القصصى، مفتوحة بذلك صفحة جديدة وهامة في الحياة الروحية للمجتمع الروسى، مرحلة الرومانتيكية الجديدة»^(١١).

أما فى «الإخوة قطاع الطريق» فقد تطرق بوشكين لموضوعات لقيت انعكاساً لها فيما بعد فى مؤلفاته الواقعية، مثل موضوع احتجاجات الفلاحين التى تمخضت عنها الحياة الاجتماعية والتاريخية فى روسيا: بلد الأبقان الفلاحين حتى عام ١٨٦١، وهو عام إلغاء قانون القنانة.

ولقد كان رد فعل بوشكين على أوضاع الفلاحين بمثابة تجاوب من جانبه مع روح العصر، وهو التجاوب الذى يعد سمة هامة من سمات إنتاجه.

وتعتبر بؤئىما «نافورة باختشى سراى» أيضاً من أهم إنجازات بوشكين الرومانتيكية فى فترة الجنوب، وقد حظيت على شهره كبيرة، وتحولت إلى عرض معروف للبالية، وسوف أتوقف عندها فى مقدمة ترجمة النص الكامل لها فيما بعد.

(١١) د. بلاجوى، «تاريخ الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر، موسكو، ١٩٧٠، ص ٤٣٧.

بوشكين هو - بحق - نموذج للفنان الشامل، فقد اتجه إلى تجريب ضروب أدبية مختلفة في إنتاجه مما جعل بعض نقاده يقدرّون فيه - على نحو خاص - «كشوفاته الضريبية»^(١٢) فألى جانب الشعر الغنائى الذى يشغل مكانة مرموقة فى إنتاجه، كتب بوشكين المراثى، والأودا، والبؤثىما الرومانتيكية بالإضافة إلى التراجيدية القصيرة، والمسرحية التاريخية، والرواية، والأسطورة، والدراسة النقدية.

وتعتبر فترة إقامة بوشكين فى قرية ميخائيلوفسكى مرحلة انعطاف فى مسيرته الإبداعية تجاه المذهب الواقعى، كذلك كانت فترة لصقل المعرفة والتجربة الحياتية، وتجريب ضروب فنيه جديدة.

كانت قرية ميخائيلوفسكى هى محطة المنفى الجديد بالنسبة لبوشكين بعد قضاء أربع سنوات من المنفى متنقلا بين القرم والقوقاز واوديسا، فقد تزايدت شعبية بوشكين فى فترة المنفى، وانتشرت قصائده الحرة فى أرجاء روسيا؛ مما جعل القيصر يفرض عليه الإقامة الجبرية فى قرية ميخائيلوفسكى، ويضعه تحت الرقابة المشددة لا يشاركه أحد فيها سوى مربيته العجوز.

(١٢) انظر ب. بورسوف، مصير بوشكين، مرجع سابق، ص ٣١.

وجد بوشكين فى إقامته الجبرية فرصة مواتية للتعرف عن قرب على حياة الفلاحين، والقراءة المتعمقة فى التراث الأدبى العالمى للشرق والغرب. ورغم ثقل المعاناة بسبب الإحساس بالمطاردة، والانقطاع عن الأصدقاء والدوائر الأدبية فى ظروف تحديد الإقامة الجبرية فقد استثمر بوشكين هذه الفترة فى الحديث مع الفلاحين، والتواجد فى الأسواق الضاحجة والنزهات الشعبية، حيث عفوية الحديث الشعبى، والأغنية الشعبية. أما القراءات فكانت متعددة ومتشعبة. وبوشكين - حقيقة - يقدم نموذجاً للفنان المثقف الذى لا يعتمد على الموهبة الفنية وحدها، بل يحاول صقل الموهبة بالدراسة، والقراءة، والخبرة الحياتية. ولا أدل على ذلك من كلمات الشاعر بوشكين التى يؤكد فيها أن الموهبة حين تفتقر إلى العمل «لا يخرج من خلف القلم شىء ذو مغزى»^(١٣)، وقد أكد بوشكين بنفسه هذه القيمة حين انكب على التراث القومى والعالمى ينهل منه ليشرى تجربته الأدبية ويوسع من أبعادها.

إن دائرة قراءات بوشكين متسعة ومتشعبة، فإلى جانب دراسة الثقافة القومية اتجه بوشكين إلى الأدب الإغريقى والآداب الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والآداب الشرقية: ومن أهمها العربية والفارسية.

(١٣) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج١، موسكو، ليننجراد، ١٩٣٧، ص ٨٨.

وتعتبر المسرحية التاريخية والرواية من أهم الأشكال الفنية التي اتجه إليها بوشكين في فترة إقامته في قرية ميخائيلوفسكى.

اعتمد بوشكين في كتابته للتراجيديا التاريخية «بوريس جودنوف» على المصادر التاريخية، فمن المعرف استناده في كتابتها إلى الأجزاء (١٠ - ١١) من عمل الأديب كارامازين «تاريخ الدولة». (١٨٢٤-١٨٢٥).

اهتم بوشكين في تراجيديا «بوريس جودنوف» بتصوير فترة نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر من تاريخ روسيا، وهي الفترة التي تنتمى إليها أحداث حكم القيصر بوريس جودنوف، والتي اتسمت بالدرامية والعنف.

ورغم استناد بوشكين إلى المصادر التاريخية إلا أنه قدم معالجته للتاريخ وطباع الشخصيات، وقد أشير في العديد من الكتابات النقدية إلى الطابع التجديدي الذي ظهرت عليه هذه المسرحية؛ حيث «حطم بوشكين في شجاعة في تراجيديا «بوريس جودنوف» القواعد الدرامية المعترف بها بشكل عام مما اكسب المسرحية شكلاً غير عادي ينطوي على تحدٍ» (١٤).

وقد تبدى هذا الخرق لقواعد الدرامية في الخروج على وحدة الزمان والمكان والحدث، حيث تنبسط أحداث المسرحية على رقعة زمنية متسعة

(١٤) س. فومينشيف، «شعر بوشكين»، الارتقاء الإبداعي، ليننجراد، ١٩٨٦، ص ١٤٥.

تمتد لأكثر من سبع سنوات، أما مكان الأحداث فقد اتسم بالتباين والتنوع.

حاول بوشكين أن يشمل العصر التاريخي بشكل متسع فبسط أمام القارئ حشداً ضخماً من الشخصيات التي تنتمي إلى مختلف طبقات العصر التاريخي، ورغم أن المسرحية تحمل اسم القيصر بوريس جودنوف إلا أن شخصية القيصر جودنوف لا تشغل إلا ست لقطات من عدد لقطات المسرحية البالغة ثلاث وعشرين لقطة.

وقد سعى بوشكين في تراجيديا «بوريس جودنوف» إلى إضفاء المصدقية التاريخية على شخصيات المسرحية، فالناس في المسرحية يتحدثون بلغة ذلك العصر التاريخي الذي يرتبطون به، ولكل شخصية تاريخية وجودها المميز، وقد اعتمد بوشكين في ذلك على دراسة المصادر التاريخية.

وقد واصل بوشكين في فترة الإقامة الجبرية في ميخائيلوفسكى كتابه فصولاً من روايته الواقعية «يفجينى اونيجن». عايش بوشكين في فترة تواجده في ميخائيلوفسكى أحداثاً تاريخية هامة ما من شك أنها لعبت دوراً مؤثراً في اهتمامه بالموضوع التاريخي، فقد كانت تلك الفترة هي الفترة التحضيرية للانتفاضة الديسمبرية التي كان من بين صفوفها العديد من أصدقاء بوشكين، وقد وقعت أحداث الانتفاضة وهو ما يزال في ميخائيلوفسكى في ديسمبر من عام ١٨٢٥ في إقامته الجبرية، وكان

لأنكسارها وقع كبير على الشاعر، فقد هاله المصير الدرامى الذى آل إليه أعضاء الانتفاضة الذين كانوا يمثلون صفوة المجتمع النبيل فقد قتل البعض، ونفى البعض الآخر إلى سيرايا.

وفى محاولة لامتصاص رد الفعل الغاضب على التنكيل والنفى الذى حدث مع المشاركين فى الانتفاضة قرر القيصر إطلاق سراح الشاعر بوشكين من إقامته الجبرية فى ميخائيلوفسكى بهدف التظاهر باتخاذ خطوات ليبرالية من جهة، وحتى يضمن صمته من جهة أخرى، لا سيما وأن التحقيقات مع المشاركين فى الانتفاضة قد أوضحت التأثير الكبير لأشعاره على أعضاء الانتفاضة.

وفى طريق العودة من الإقامة الجبرية فى ميخائيلوفسكى إلى موسكو تعين على بوشكين أن يمثل أمام القيصر. وفى ردٍ على سؤال وجه إلى بوشكين من القيصر نيكولاى الثانى بصدد «أين كان سيتعين عليه التواجد فى يوم ١٤ ديسمبر (يوم الانتفاضة) لو أنه كان طليقا فى بطرسبرج؟ أجاب بوشكين «كنت سأكون بين صفوف المتمردين» (١٥).

وقد عبر بوشكين فى لقاءه مع القيصر عن شكواه من مضايقات الرقابة، فما كان من القيصر إلا أن أعرب من جانبه بأنه «سوف يقوم بنفسه

(١٥) عن بيتروف «تاريخ الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر»، موسكو، ١٩٧٠، ص ٢٠٢.

بدور الرقيب لأعماله، وقد كلف بوشكين بإعداد دراسة حول موضوع التربية القومية. وكان كل ذلك يستهدف من جانبه إثارة دهشة الشاعر بكرمه، ومن جهة أخرى للتعرف على صورة أفكاره» (١٦)

- ٦ -

عاد بوشكين إلى مسقط رأسه موسكو بعد فراق دام خمسة عشر عاماً منذ أن رحل عنها لتلقى التعليم في الليسيه، ثم تلى ذلك الخدمة الحكومية في بطرسبرج، ثم سنوات المنفى، والإقامة الجبرية متنقلاً بين الجنوب وأوديسا وميخائيلوفسكى.

عاد بوشكين إلى أصدقاء الطفولة والصبا، وإلى حياة الأضواء في مجتمع الصفوة، وإلى مسارح موسكو وصالوناتها الأدبية.

ورغم الشهرة الكبيرة التي حظى بها الشاعر في تلك الفترة، إلا أن بوشكين «كان ملحوظاً عليه قلق ما حزين، كان يعاني من شيء ما، ويسعى إلى مكان ما، وكانت الوصاية والحجر من جانب القيصر نيكولاى بافلوفيتش تثقل عليه وتخنقه. وذلك حسب شهادة واحد من معاصريه» (١٧).

(١٦) نفسه، الصفحة نفسها.

(١٧) عن ل. جافر يلوفا، بوشكين: حياته وإبداعه، موسكو، ١٩٨٩، ص ٣٠.

وبالإضافة إلى العامل الشخصى، فقد كان أيضا «يعذبه التفكير فى الأصدقاء، والإخوة، والرفاق الذين لقوا مصرعهم، وفى أولئك الذين كانوا يرزحون فى جحور الأشغال الشاقة، فى سيبيريا، وكان ذلك يجثم فى ثقل على روحه» (١٨).

وتعد الفترة من ١٨٢٦-١٨٢٩ فترة لازدهار الشعر الغنائى فى إنتاج بوشكين والذى اتسم بتنوع الموضوعات بالقياس بغنائياته السابقة، وقد تطرق فيه إلى موضوعات الحب، الطبيعة، التاريخ، الموت، الحياة، والصداقة. وقد اكتست أشعار هذه الفترة بنغمات الحزن، واليأس، والحسرة المؤلمة وذلك فى إطار المناخ الاجتماعى العام، والنفسى الخاص الذى واكب كتابة هذه القصائد.

ويرتبط بإنتاج هذه الفترة مؤلفات بوشكين التى تناولت تصوير تاريخ القيصر بطرس الأول، فقد بدأ بوشكين فى عام ١٨٢٧ كتابة روايته التاريخية «عيد بطرس العظيم» وهو المؤلف الذى قدره الناقد الكبير بيلينسكى تقديراً كبيراً بوصفه رواية «بارعة تصور طباع أعظم عصر فى التاريخ الروسى» (١٩).

(١٨) نفسه، نفس الصفحة.

(١٩) ف. بيلينسكى، المؤلفات الكاملة، ج٧، ص ٤٨٨.

كذلك كتب بوشكين بؤئيمًا «بولتافا» (١٨٢٨) التي تعد محاولة من جانب بوشكين لتشيد البؤئيم الواقعية ذات الموضوع التاريخي، فقد صورت «بولتافا» أحداث معركة «بولتافا» التي قادها بطرس.

وبالإضافة إلى ذلك كتب بوشكين قصيدة «رباعيات» (١٨٢٦) وهي من وحي صورة بطرس أيضا. وقد كان لهذه المؤلفات أهميتها الكبيرة نظراً للمكانة المرموقة التي يحتلها القيصر بطرس الأول في التاريخ الروسي، وبالنسبة لبوشكين نفسه الذي كان يعتبر «أن الشعب الروسي وهو يسير في طريق تاريخي خاص به، قد شرع على طريق التنوير بفضل إصلاحات بطرس، وبذا كفل لنفسه إمكانية الحرية في المستقبل»^(٢٠)

- ٧ -

عُرفت السنوات التي أعقبت إطلاق سراح بوشكين من الإقامة الجبرية "بسنوات التسكع" فقد تميزت هذه الفترة بكثرة ترحال الشاعر وعدم استقراره، فقد كان يتنقل بين موسكو، وبترسبرج، وميخائيلوفسكى هائما يستشعر هوة بينه وبين السلطة من جهة، وبينه وبين مجتمعه الأرستقراطي من جهة أخرى، إلى جانب إحساسه بعداء الكثير من الأدباء له، لقد كان الجميع في فزع أمام الشهرة المتزايدة التي كان يكتسبها بوشكين يوماً بعد يوم في هذه الفترة قرر بوشكين الزواج من الشابة الجميلة ناتاليا جوننتشاروفا، حيث رفض طلبه في المرة الأولى حين تقدم لها، ثم تمت الموافقة بعد ذلك.

(٢٠) عن س. بيتروف «تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر»، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

ويرحل بوشكين فى عام ١٨٣٠ إلى صنيعة والديه فى بوردينو لترتيب أوضاعه للزواج.

ورغم قصر مدة إقامته فى بولدينو التى استمرت ثلاثة أشهر، فقد كانت هذه الفترة مثمرة بالنسبة لبوشكين على الصعيد الإبداعى، الذى تنوع فى هذه الفترة، فقد كتب بوشكين فى الشعر، والنثر، والمسرح، والأسطورة وأيضاً الفصول الأخيرة من روايته الشعرية "يفيجينى أونيجن" التى استغرق كتابتها أكثر من ثمان سنوات.

كتب بوشكين فى هذه الفترة التراجيديات القصيرة "الفارس البخيل"، "موتسارت وساليرى"، "الضيف الحجرى"، و"وليمة فى وقت الطاعون". وقد اتسمت هذه الأعمال بالتحليل النفسى المعمق، وتطرق إلى تجسيد المشاعر الإنسانية المتباينة التى تعكس معرفة بوشكين بمكنونات النفس البشرية ونوازعها. البخل، والجشع، والحقد، والحسد، والحب داخل الإنسان والنفس البشرية تلك هى المحرك وراء شخصيات تراجيديات بوشكين القصيرة.

وقد ظهر فى التراجيديات القصيرة لفترة بولدينو موهبة بوشكين الفنان فى رسم الشخصيات، والصراعات الدرامية الحادة، والنفاذ إلى حياة الشعوب الأخرى، ففى تراجيديا "الفارس البخيل" يصور بوشكين عصراً ينتمى إلى القرون الوسطى المتأخرة، ويوضح نفاذ سلطة المال والذهب إلى

مجتمع الفرسان الإقطاعي. وفي هذا الإطار يرسم بوشكين صورة للإنسان البخيل الذي أعماه حب المال عن كل شيء حتى عن ابنه. إن نمط الفارس البخيل يتكشف في تراجيديا بوشكين بوصفه ثمرة لعصر تاريخي محدد.

أما فكرة تراجيديا "موتسارت وساليري" فهي مستقاة عن روايات ترددت بصدد موت الموسيقار المعروف موتسارت وعلاقة ذلك بموسيقار آخر يدعى ساليري دفعه الحقد إلى قتل موتسارت، وقد قابل بوشكين في مسرحيته بين شخصيتي موتسارت وساليري، حيث عكس من خلال شخصية موتسارت صورة للعبقرية الفنية الحقة والفنان المستقل، بينما جسدت صورة ساليري مشاعر الكراهية والحقد. إن الفنان الحق - كما تجسد من خلال صورة موتسارت - لا يرضخ إلا لفنه، ومن هذه الزاوية فإن شخصية موتسارت قد حملت أصداً معاصرة، وتجاوبت مع مشاعر بوشكين الفنان في مواجهته للسلطة القيصريّة. وقد اتجه بوشكين في تراجيديا "الضيف الحجري" إلى قصة دنجوان التي صور على خلفيتها ملامح من الطباع وإنماط الحياة في إسبانيا في عهد النهضة.

و«يفجيني أونيجن» هي رواية شعرية وتعد من أشهر أعمال بوشكين، وقد بدأ بها بوشكين طريق تطور الرواية الاجتماعية الكلاسيكية في القرن التاسع عشر^(٢١) و«يفجيني أونيجن» التي تعتبر قمة إنتاج

(٢١) سبق أن تناولنا بالتفصيل هذه الرواية في كتابنا، مكارم الغمري، الرواية الروسية في القرن التاسع

عشر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١.

بوشكين فى ذات الوقت نقطة تحول فى إنتاجه رأى فيها الكثير من النقد نزولا تجاه "شعر الواقع" وابتعاداً عن المواضيع العلوية. ومن جهة أخرى اعتبرت "يفجينى أونيجين" بمثابة منعطف فى طريق الأدب الروسى تمثلت فيه عملية التحول من الاتجاه الرومانتيكى إلى الواقعى، تلك العملية التى ميزت طريق تطور الأدب الروسى بشكل عام فى ثلاثينيات القرن الماضى، فقد أعطت هذه الرواية تصويراً للواقع المعاصر والشخصيات على نحو مغاير لما سبقها من روايات من جهة شمول الواقع أو الحياة، وفى الكثير من الأسس الفنية. ظهرت صورة يفجينى أونيجين فى ثوب واقعى جديد التحم فيه البطل بالواقع المعاصر وتجسدت به عملية تحول بوشكين تجاه الواقعية، ذلك التحول الذى بدا متمشياً مع متطلبات الواقع الجديد ما بعد انكسار انتفاضة الديسمبر بين حيث باتت أحلام الحرية المجردة التى ارتبطت بالمؤلفات الرومانتيكية غير مشبعة للاحتياجات الجديدة للحياة. وعلى امتداد فترة كتابة الرواية التى استغرقت ثمانى سنوات كان بوشكين شاهداً لتحركات الديسمبريين، ثم قيامهم بالانتفاضة التى لم تكلل بالنجاح، وربما لهذا يمكن تفسير الطابع الحزين لنهاية "يفجينى أونيجين" والذى يختلف عن نغمة البداية.

ويفجينى أونيجين الذى تحمل رواية بوشكين اسمه هو واحد من أبناء الطبقة النبيلة، شاب مثقف يمثل صفوة الشباب فى عصره والذى ينتمى إليه الشاعر نفسه.

ويرتبط بيفجيني أونيجين البطل الأول للرواية الخط المضمونى
الرئيسى لها والذي يصور قصته العاطفية مع النبيلة الأرستقراطية تايانا التى
تعيش فى إحدى الضواحي، إن تايانا تقع فى حب أونيجين من النظرة
الأولى، وهى تكتب له فى صراحة شديدة تبوح فيها بحبها. إلا أن حب
تايانا لا يجد صدى لدى أونيجين الذى يرد عليها بدوره يصارحها بحقيقة
مشاعره.

وتمضى الأيام وتتزوج تايانا نزولا على رغبة أهلها من نبيل إقطاعى
وتنتقل للعيش معه فى العاصمة؛ حيث تتحول إلى واحدة من سيدات
المجتمع الراقى.

ويظهر يفجيني أونيجين من جديد، ويلتقى بتايانا الجديدة فتبهره
بوضعها الجديد، ويتبدل شعوره تجاهها، فيصارحه بحبه المتأخر نحوها، إلا
أن تايانا الوفية لأسرتها ترفض هذا الحب رغم أن حبها القديم ليفجيني
كان ما يزال بداخلها.

ويبدو للوهلة الأولى أن مضمون "يفجيني أونيجن" عاطفى بحت
إلا أن الرواية قد أعطت إلى جانب الحظ العاطفى تسجيلاً دقيقاً للحياة
المعاصرة والإنسان المعاصر، فقد رسم بوشكين على خلفية المضمون
العاطفى للرواية الملامح الاجتماعية والسياسية والمعيشية المميزة للعصر،
حيث تنبسط أمام القارئ صورة للحياة فى بطرسبرج، وصورة لموسكو

وسكانها من النبلاء، والقرية الروسية فى ظل الإقطاع، وحياة الفلاح البسيطة فى مقابل حياة الترف التى يعيشها النبلاء.

حاول بوشكين من خلال صورة يفجينى أونيجن أن يصور جيلاً بأكمله من الشباب النبيل بما يحمله هذا الجيل من سمات مميزة.

إن أونيجن مثل أبناء طبقته تلقى تعليماً خاصاً على أيدي أساتذة ومربين فرنسيين، وهو رغم التعليم الخاص والثقافة المتنوعة يقضى وقته فى عبث، وتمضى حياته فى سلسلة مفرغة من المتع الدينيوية، والحياة المأجنة الصاخبة التى تفتقد الهدف، ويملؤها الملل.

ولكن أنى لمثل أونيجن - الذى يصفه الكاتب "بالعقل الحاد" لأن يكون غارقاً فى الملذات والملل والنشاط؟ إن العلة - كما يوضح بوشكين - تكمن فى البيئة المحيطة به، والتى فرضت على أونيجن هذا النمط من الحياة.

إن أونيجن رغم كل حياة الترف التى يعيشها لا يبدو سعيداً، وبات غير مبالي بريق طبقته وحياتها الصاخبة، ويشعر بعدم الرضى. لقد أصبح شعور اللامبالاة يسيطر على أونيجن، وقد بعث ذلك الخواء فى روحه، بالملل، وبات "إنساناً زائداً" عن المجتمع، فقد افتقد الهدف، والعمل، ومغزى الحياة، وأصبح يشعر بالغربة بين قومه وأهله.

لقد ارتبطت صورة أونيجن بسلسلة الأبطال الذين ظهوروا فى الأدب الروسى الكلاسيكى فى القرن التاسع عشر، والذين لقبوا بلقب "الإنسان الزائد"، وبوشكين يكشف عن تراجيديا بطله فى تلك الأماكن التى يصور بها اصطدام المساعى الخيرة والنوايا الطيبة لاونيجن بواقعه المحيط، وكيف أن هذه المساعى كانت تتعارض مع عرف طبقته.

إن تراجيديا أونيجن تتعمق بعد قتله لصديقه العزيز لينسكى فى مبارزة أجبر على خوضها. إن قصة المبارزة هى من جهة أخرى تبرز فى الرواية كدليل على اتصال أونيجن وارتباطه بسلوك وعادات طبقته الارستقراطية، فقد أقدم أونيجن على مبارزة الصديق خوفاً من اتهامه بالجن، وقد كان لهذه المبارزة أثر بالغ على نفس أونيجن، وبداية تحول روحى بالنسبة له، فقد وجد أونيجن نفسه قاتلاً لأعز أصدقائه، ولذا فقد دفع ثمن ذلك غالياً، إذ فقدت نفسه السكينة والهدوء، فصار يرتحل هائماً على وجهه، واستولت عليه رغبة "تغيير الأماكن" بلا هدف، وبلا شعور.

وبوشكين فى "يفجينى أونيجن" بتصويره المتسع للواقع المعاصر ومأساة جيله، وفى عكسه للعالم الداخلى للأبطال وتصويره لنمط تفكيرهم وأسلوب معيشتهم، ومشاكلهم النفسية التى تبرز فى ارتباط وثيق مع البيئة المعيشية قد فتح بذلك طريقاً جديداً أمام تطور الأدب الروسى، ورغم أن بوشكين نفسه كان يرى "فرقاً شيطانياً" بين روايته الشعرية وفن الرواية إلا

أن يفجيني أونيجن أبرزت فى تاريخ الأدب الروسى بوصفها «أول نموذج للرواية الواقعية فى القرن التاسع عشر، وأول رواية كلاسيكية واقعية تتمزج فيها المزايا الجمالية العالية بالكشف العميق للطبائع الإنسانية وحتميات الحياة الاجتماعية». (٢٢)

ومن أهم الأعمال التى كتبها بوشكين فى فترة بولدينو خمس قصص جمعها العنوان "قصص بيلكين"، وأيضاً "قصة قرية جوريوخين"، حيث شيد بوشكين صوراً واقعية ولوحات من حياة النبلاء، والموظفين، والفلاحين الأتقان، بالإضافة إلى ذلك كتب بعض القصائد الغنائية والدراسات النقدية، وقد اتسمت "قصص بيلكين" بالمقدرة على النفاذ العميق إلى طابع الإنسان، وغياب الميلودراما، وقدمت لونا مغايراً للقصة العاطفية الإرشادية التى أخذت بدايتها من "ليزا المسكينة" لكارمازين، والتى كانت تهتم بتجسيد الصور المثالية التى شيدت لأغراض إرشادية بالإضافة إلى المضامين العاطفية.

لقد اهتم بوشكين فى "قصص بيلكين" بالتقاط الأنماط الواقعية، وتجسيد اللوحات المعيشية المألوفة والتى تعكس مختلف مناحى الحياة، وفى "قصص بيلكين" نلتقى بمجموعة من الحكايات التى تروى على لسان الإقطاعى بيلكين الذى يخلع عليه بوشكين صفات التواضع، والبساطة.

(٢٢) عن تاريخ الرواية الروسية، موسكو - ليننجراد، ١٩٦٢، ج١ ص ١٠٠.

وتعتبر "قصص بيلكين" لبوشكين بمثابة انعطافة تجاه معالجة صورة "الإنسان الصغير"، ونحو صدق التصوير وواقعيته والاهتمام بإدراج لغة الحديث في القصص. وتعد قصة "ناظر المحطة" وهى واحدة من «قصص بيلكين» من أهم قصص المجموعة فقد اقترب فيها بوشكين من معاناة الإنسان البسيط المهان بشكل جعل أديب كبير مثل مكسيم جوركى يعتقد بأن واقعية الأدب الروسى "تبدأ من هذه القصة بالذات" (٢٣).

لقد كانت فترة خريف بولدينو- بحق- فترة مثمرة فى إنتاج بوشكين أعطى فيها فصل الخريف المحبب إلى نفس الشاعر دفعة قوية لإنتاجه آذنت ببداية مرحلة جديدة فى تطوره.

-٨-

عاد بوشكين إلى الحياة فى مدينة بطرسبرج بعد زواجه فى عام ١٨٣١، والتحق الشاعر بالعمل فى هيئة الشؤون الخارجية، كما سمح له بالعمل فى الأرشيات على أمل أن يتمكن بوشكين من كتابة تاريخ بطرس العظيم.

كانت فترة إقامة بوشكين الأخيرة فى بطرسبرج مصدراً لمزيد من المعاناة فى حياة الشاعر، فحياة المجتمع العلوى تسبب له الألم، فضلاً عن

(٢٣) عن د. بلاجوى، تاريخ الأدب الروسى، مرجع سابق، ص ٥٣٧.

الحاجة المادية المتزايدة لمقابلة النفقات التى تتطلبها مثل هذه الحياة والتى لم تكن تفى بها موارده المالية. والعلاقة بالقيصر مستمرة فى الشد والجذب، وعدم الثقة المتبادلة. أما الدوائر الأدبية فقد كانت تضيق عليه لا يرضيها استقلالية الفنان بداخله، والزوجة الشابة الجميلة لا تشاركه اهتماماته الأدبية، وتنغمس فى حياة المجتمعات العليا، تستأثر بجمالها إعجاب المحيطين بما فيهم القيصر نفسه، والديون والوشايا تحاصره وتسير به إلى النهاية المفجعة.

مع ذلك واصل بوشكين فى هذه الفترة مسيرته الإبداعية، وشيد العديد من الأعمال الهامة منها: مؤلفاته النثرية "ملكة البستونى"، "ليال مصرية"، "دوبروفسكى" "ابنة الأمر"، "بؤيما" "الفارس النحاس" بالإضافة إلى بعض القصائد الغنائية، والأساطير، والتجارب الدرامية.

اتجه بوشكين فى رواية "دوبروفسكى" (١٨٣٢ - ١٨٣٣) إلى موضوع الفلاح، وهو من الموضوعات الأثيرة بالنسبة للأدب الروسى الذى عايش معاناة الفلاح فى ظل نظام القنانة الذى استمر فى روسيا حتى عام ١٨٦١ حين إلغى نظام الرق، وتصور رواية "دوبروفسكى" لمحات من حياة الفلاحين الأقنان، وصور لإقطاع الضواحي فى فترة بداية القرن التاسع عشر، وتعكس لمحات من علاقة الأقنان بالإقطاع، حيث ترمز إمام القارئ صور لمثلئ الإقطاع فى تلك الفترة، وتبرز بين هذه الصور شخصية النبيل دوبروفسكى الذى حملت الرواية اسمه، وهو نبيل يخرج على عرف طبقته، ويبدو مناهضاً للعبودية والظلم الذى يلقاه الفلاح.

وتعتبر رواية "ابنة الأمر" امتداداً لموضوع الفلاحين والإقطاع في صورة الرواية المكتملة، فقد اتجه بوشكين في هذه الرواية إلى تصوير لقطات من تاريخ انتفاضات الفلاحين في روسيا ارتبطت أحداثها بفترة السبعينيات من القرن الثامن عشر وارتبطت باسم زعيمها بوجاتشوف. عكف بوشكين على دراسة تاريخ الانتفاضة، كما عاين على الطبيعة مواقع الأحداث، محاولاً أن يلتقط من شهود العيان الباقين على قيد الحياة خيوطاً تساعد على نسج شخصيات روايته. وبالإضافة إلى ذلك اتجه بوشكين إلى المؤلفات الأدبية التي صورت حياة تلك الفترة ولا سيما مؤلفات الكاتب فونفزين. ولم يشرع بوشكين في كتابة رواية "ابنة الأمر" إلا بعد صدور عمله التاريخي "تاريخ بوجاتشوف" (١٨٣٣ - ١٨٣٤).

عكست "ابنة الأمر" صورة ناصعة لانتفاضة بوجاتشوف حاول بوشكين من خلالها أن يكشف سير الحركة الشعبية على امتداد عشرات السنين المتتالية، والتي أدت في النهاية إلى انتفاضة (١٧٧٤ - ١٧٧٥). وتتبوأ صورة بوجاتشوف زعيم الانتفاضة مكانة هامة في الرواية، وقد جسّد بوشكين من خلاله صورة الزعيم الذي يتسم بالموهبة والشجاعة، ويرتبط بالشعب في مسيرته المناهضة لنظام القنانة.

وقد اتجه بوشكين في روايته إلى تجسيد صورة الزعيم التاريخي بوصفه ممثلاً لدوائر اجتماعية محددة وإطاراً تاريخياً بذاته مهد لظهور الانتفاضة وزعيمها.

وإلى جانب ذلك أعطى بوشكين صورة لعائلة الضابط ميرنوف وابنته ماشا التى جسد بها البساطة والصمود فى الأوقاف الصعبة.

وتعتبر بؤثيما "الفارس النحاسى" (١٨٣٣) من الأعمال الهامة التى كتبها بوشكين فى الفترة الأخيرة من مسيرة إبداعه. وقد اتجه بوشكين فى هذا المؤلف من جديد إلى صورة القيصر بطرس العظيم وإلى الإصلاحات التى اتخذت فى عصره، وإلى الصرح العظيم الذى شيده: مدينة بطرسبرج الجميلة التى تعبق أرجاؤها برائحة القديم، والتى أحبها الشاعر بكل تناقضاتها، وأفراحها، وأحزانها.

-٩-

قبل مصرعه بفترة قليلة تمكن بوشكين من تحقيق حلم راوده طويلا، ألا وهو السماح له بإصدار مجلة أدبية، وقد صدرت المجلة فى عام ١٩٣٦ بعنوان "سفر يمينك" (المعاصر) وصدر منها أربعة أعداد فى حياة الشاعر، وقد ظهرت على صفحاتها مؤلفات جوكوفسكى، فيازيمسكى، ونيكولاى جوجول الذى كان ما يزال شابا فى تلك الفترة، وغيرهم من الأدباء.

إن عمل بوشكين فى هذه المجلة يقترب بنا من ملمح هام فى السيرة الأدبية لبوشكين؛ ألا وهو بوشكين الناقد الأدبى، فقد ترك بوشكين العديد من الكتابات النقدية التى بلورت رؤيته تجاه قضايا فنية عديدة وجدت تعبيراً لها فى أعماله الأدبية (٢٤).

(٢٤) انظر دراسات بوشكين النقدية فى الجزء السابع من مؤلفات بوشكين الكاملة، ليننجراد، ١٩٧٨.

ولعل فى مقدمة هذه القضايا يبرز موضوع الفن ودوره فى الحياة، إن الفن - حسب تصور بوشكين - لا يجب أن ينكفأ على ذاته وعلى معاناة الفنان، بل يجب أن يكون صدى للمعاصرة، دون أن يفقد خصوصيته الفنية، وقد أكد بوشكين هذا المعنى فى قصائده التى عبر فيها عن أفكار الديسمبريين، وعن قصائده التى تطرق فيها إلى دور الشاعر، ورسالة الفن مثل قصيدته "صدى" (١٨٣١).

ومن جهة أخرى طالب بوشكين أن يعبر الشاعر عن المضمون الاجتماعى بالوسائل التى تخص الشعر والفن، أى بلغة الفن الخاصة، ومن هنا يمكن فهم نقده لبعض أشعار الديسمبريين التى طفى فيها المعنى على الفن، وذلك كما جاء فى خطابه إلى الشاعر الديسمبرى ريليف بصدده أشعاره "أفكار" (٢٥).

ومع ذلك فإن ضرورة أن يتجه الشعر إلى المضمون الاجتماعى لا يعنى بالنسبة لبوشكين أن يفقد الفنان استقلالته، ويخضع قلمه للسلطة، بل يجب عليه أن يحافظ على استقلالية الفنان بداخله، ولعل قصائد مثل "الى الشاعر" (١٨٣٠)، "السوق" (١٨٢٨) قد عبرت بجلاء عن هذا المعنى.

انطلق بوشكين فى دعوته إلى أهمية المضمون الاجتماعى فى الشعر من الفهم للأهمية الكبرى التى يجب أن يتبوأها الأدب فى عصره بوصفه

(٢٥) عن د. بلاجوى، من بوشكين، موسكو، ١٩٥٥، ص ١٤.

تعبيراً عن الفكر الاجتماعي، وعنصراً للتطور الروحي للأمة وتنويرها، ولهذا دافع بوشكين في مثابرة عن "شعبية" الأدب التي عرفها بأنها: "المناخ، صورة الحكم، العقيدة تعطى لكل شعب وجهاً خاصاً، ينعكس إلى حد معين في مرآة الشعر. توجد صورة للأفكار والمشاعر، توجد وفرة في العادات، والاعتقادات التي تخص شعب ما بشكل استثنائي" (٢٦).

وقد لمست كتابات بوشكين النقدية الكثير من القضايا الأدبية الحيوية المعاصرة له، مثل القضايا المرتبطة بالمذهب الرومانتيكي، والمسرح، والنثر. اجتذبت قضايا النثر اهتمام بوشكين منذ وقت مبكر، وقد حدد بوشكين المتطلبات الضرورية في الكتابة النثرية: "الدقة، الإيجاز: هما أول فضيلتان للنثر، إنه يتطلب الفكر والفكر، فبدونه لن يخدم التعبير شيئاً". (٢٧)

وقد جاء إنتاج بوشكين خير تأكيد لرؤاه النقدية، فقد تميزت كتاباته بالإيجاز، والدقة في وصف الطبيعة، والمضمون الثري، والفنية العالية، والشعبية، إن شعر بوشكين - كما يشير الناقد بيلنسكى بحق - يتميز "بالإخلاص بشكل مدهش للواقع، سواء تناول وصف الطبيعة الروسية، أو

(٢٦) أ. بوشكين، «عن الشعبية في الأدب» المؤلفات الكاملة، ج٧، لينتجراد، ١٩٧٨، ص ٢٨.

الطبائع الإنسانية الروسية، وعلى هذا الأساس فالصورة المعلنة. إنه شاعر روسي حق". (٢٨)

لم يتعارض "القومي" و"الشعبي" في إنتاج بوشكين مع "رد الفعل العالمي"، فبوشكين هو حقيقة - كما قال عنه بيلينسكي نفسه - "شاعر عظيم لكل الشعوب، وكل العصور"، فالطبيعة الشاعرية لبوشكين "لم تكن حقيقة يغلفها شيء يمنعها من أن تستشعر المواطنة في كل مجالات الحياة في أي مكان في العالم ومثلما تشعر في دارها" (٢٩). إن بوشكين في انتاجه يرحل بفنه إلى بلاد كثيرة في الشرق والغرب، متمثلاً في هذا الانتاج السمات المميزة للشخصيات القومية، وملامح المكان.

لم يتوج بوشكين شاعراً قومياً فحسب، بل ومؤسساً للأدب الروسي الحديث، فقد "تمكن في إنتاجه من عبور مشكلتين لم تكونا قد عبرتا من قبل، فقد جعل من الأدب مرآة للواقع، وإحدى القوى الروحية الرائدة في حياة الشعب، كما أشبعه بالمضمون الاجتماعي التقدمي للفكر، وفي نفس الوقت، وبالتوازي أكد خصوصيته الأدب بأن نهض بالأدب الروسي إلى قمة الأدب الفني الحق، والكلمة الفنية القومية" (٣٠).

(٢٨) ف. بيلينسكي، المؤلفات الكاملة، ج٣، موسكو، ١٩٥٥، ص ٢٣٢.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣٠) د. بلاجوي، فن بوشكين، (مرجع سابق)، ص ٧.

كانت إنجازات بوشكين فى الكلمة الفنية كبيرة، فقد تمكن فى مؤلفاته من إرساء أسس اللغة الأدبية الروسية الحديثة، واجتياز الفجوة التى تفصل بين اللغة الأدبية المكتوبة ولغة الشعب الدارجة، فقد كانت المؤلفات الأدبية تكتب باللغة السلافية الكنائسية المنفصلة عن اللغة الروسية الشعبية الحية، ثم بدأ تقرب لغة الكتب من لغة الحياة فى عهد لومونوسوف (القرن الثامن عشر)، ولا غرو إن كان بوشكين هو أحد رواد تحديث اللغة الأدبية الروسية. وفى أول بؤئىما رومانتيكية له "روسلان ولورميلا" فتح بوشكين الباب أمام عفوية اللغة الشعبية، وتمكن من تشييد أكمل الأشكال الفنية فى إطار من البساطة، والدقة، والوضوح، والإيجاز المبدع.

ويعتبر بوشكين نموذجاً للفنان الشامل، والمبدع المجدد، فإليه يعود الفضل فى إرساء بدايات وموضوعات وضروب أدبية جديدة فى الأدب الروسى مثل البؤئىما الرومانتيكية، الرواية الشعرية الواقعية، القصة الشعرية، التراجيديا الواقعية والدراما. وقد جسد إنتاج بوشكين وبشكل عام منعطفات تاريخية فى حركة التيار الأدبى فى روسيا فى تحوله من الكلاسيكية إلى الرومانتيكية، ثم بعد ذلك من الرومانتيكية إلى الواقعية.

- ١٠ -

وفى قصيدة "التجول بالطرق الصاخبة طولاً" (١٨٢٩) كتب

بوشكين:

كل يوم، كل سنة
تعوددت أن أعاش بفكرى

ذكرى الموت العاصفة
وبينهما أحاول أن أحذر.
أين سيرسل القدر لى الموت؟
فى معركة، فى سفرة، فى الأمواج؟
أم أن الوهدة المجاورة
ستلقى رفاتى الفاتر؟ (٣١)

هل كان من قبيل الصدفة أن تعبر موتيفة الموت فى أشعار بوشكين منذ بدايتها؟ وهل كان هاجس الموت هو أحد أسباب اندفاعه نحو مبارزة الموت؟ أم النبوءة هى السبب؟ لقد أشير فى بعض الكتابات إلى نبوءة لعرافين تنبأوا لبوشكين بالموت بسبب "شاب طويل القامة أشقر"، كما أشير أيضا إلى أن بوشكين كان مولعا بقراءة الطالع^(٣٢)، أم أن السبب فى النهاية المأساوية لأكبر شعراء روسيا يرجع إلى وشايات الطبقة الراقية وتآمر القيصر؟ استفسارات كثيرة دارت وما تزال حول ملابسات مصرع أ.بوشكين التى لم يكشف عنها فى وقتها، ورغم مرور عشرات السنين منذ النهاية المأساوية لأكبر شعراء روسيا الذى لقى مصرعه فى مبارزة فى يناير

(٣١) أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، (مرجع سابق) ج٣، ص ١٣٠.

(٣٢) أ. بوشكين فى ذكريات المعاصرين، (مرجع سابق)، ص ٥٦.

عام ١٨٣٧ إلا أن الجدل لم يتوقف حول تلك الواقعة المفجعة التى كان لها صدى كبير عند مواطنيه، واستوعبت على مدار عشرات السنين المتعاقبة بوصفها مأساة قومية.

انشغل العديد من الدارسين والباحثين فى إنتاج بوشكين بدراسة الأحداث التى سبقت المباراة والتى بدت أحداثها متسمة بالغموض، ولعل دراسة ب. شيجوليف "مبارزة وموت بوشكين" التى ظهرت عام ١٩٢٨ كانت من بواكير الكتابات فى هذا الموضوع.

بدأت خيوط المأساة تتجمع مع ظهور الفرنسى دانتس فى مجتمع الأضواء، والطبقة العليا فى بطرسبرج، حيث ساقته الأقدار ليلتقى بـ زوجة الشاعر بوشكين التى كانت تحظى "بنجاح كبير" فى مجتمع الصفوة الذى ظهر به دانتس.

كان «بوشكين» - رغم نصائح أصدقائه - قد تزوج من ناتاليا جونتشارفا قبل ذلك بخمس سنوات، وكانت شابة للغاية، وبلا ثروة، وجمال غير عادى، كان لها مظهر شاعرى، ولكنها كانت ذات عقل عادى، ولها شخصيتها، وقد احتلت منذ البداية فى مجتمع الصفوة مكانة لا تنزع تليق بمثل هذا الجمال" (٣٣).

أما "دانتس" فقد كان من الرعايا الفرنسيين رغم أن أجداده كانوا ينحدرون من أيرلندا، وكان والده قد حصل من نابليون على لقب بارون.

(٣٣) أ. بوشكين، المرجع السابق، ص ١٥٣.

وقد قدم «دانتس الشاب إلى روسيا وهو مزود بعدة خطابات توصية بهدف الالتحاق بالخدمة العسكرية، وكان يحمل بين هذه الخطابات خطاباً إلى الدوقة فيكيلمون التي كانت تحظى بمكانة خاصة لدى الإمبراطورة. ويعود إلى هذه المرأة فضل بداية نجاح دانتس في روسيا، ففي إحدى امسياتها قدمت دانتس إلى الإمبراطورة، وكان من حظه أن جذب اهتمامها». (٣٤)

وقد تكررت لقاءات الحظ مع دانتس، فقد قابل القيصر نيكولاى فى "الارميتاج"، وكان القيصر قد سمع عنه من القيصرة، وانتهاز دانتس الفرصة وطلب من القيصر السماح له بالالتحاق بالخدمة العسكرية، فأجابه القيصر إلى طلبه، وبناء على رغبة القيصرة ضم إلى الخدمة فى الكتيبة الخاصة بالقيصرة.

ولأن دانتس كانت لديه موهبة أن "يحظى بالإعجاب فقد أُغرم به البارون جيكيرين السفير الهولندى السابق فى بطرسبرج، وقد كان رجل ثرياً لم يقدر له الإنجاب فقرر تبني دانتس" (٣٥)

تكررت لقاءات دانتس وزوجة الشاعر بوشكين فى حفلات المجتمع الراقى، وسرعان ما صار يعبر لها عن حبه بشكل مكشوف فى دائرة الأصدقاء الضيقة، وفجأة "تناسى أى وداعة تخص الإنسان العاقل، وخلافاً

(٣٤) المرجع السابق، ص ٣٦٤.

لكل قواعد اللياقة لمجتمع الصفوة بدأ يكشف أمام أعين المجتمع كله مظاهر الإعجاب غير المسموح بها على الإطلاق تجاه امرأة متزوجة" (٣٦).

وبدأت السعادة تنهار فى أسرة بوشكين بعد أن توالى خطابات بلا توقيع تصل إليه، وتربط فى استهزاء بين اسم زوجته ودانتس.

وازاء ملاحقة الشائعات، وكذا الخطابات التى كان يُرسل بعضها باللغة الفرنسية اضطر بوشكين أن يرسل استدعاء للمبارزة إلى دانتس الذى قبل الاستدعاء، وطلب بوشكين مهلة أسبوعين قبل المبارزة، وقد حاول أصدقاء الشاعر ومنهم الأديبان چوكوفسكى وفيازيمسكى أن يحولا دون قيام المبارزة وإصلاح الموقف، ولكنهما لم ينجحا فى ذلك.

وجاءت لحظة النهاية، وتم تحديد ميعاد المبارزة ومكانها، أما السلاح الذى سيستخدم فى المبارزة فقد تقرر أن يكون المسدسات. وكان اللقاء فى يوم ٢٧ يناير ١٨٣٧. وخر الشاعر جريحاً جرحاً مميتاً فى المبارزة، ولفظ أنفاسه بعد يومين من المبارزة.

ولكن أين كان القيصر من كل هذه الأحداث؟ لماذا لم يصنع شيئاً لإيقاف المبارزة؟

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٥٣ .

"إن القيصر الذى كان يعرف كل شىء. قد بقى فى دور المراقب.
"كان من المنتظر من مده أن تنهى المباراة وضعهما الحرج - هكذا قال
القيصر فى فبراير ١٨٣٧" (٣٧).

وشيع الآلاف جثمان الشاعر، "وعند ضريحه كان هناك تدفق لا
يتوقف من الناس من كل الجماعات التى أتت لتحنى أمام رفات الشاعر
الشعبى المحبوب" (٣٨).

وذهب الشاعر، أما الأشعار فقد بقيت "عزيزة على شعبه" وعلى كل
من يقدس الكلمة الحرة الصادقة.

لقد بقى إنتاج بوشكين حسب الوصف البليغ للكاتب الكبير
نيكولاى جوجول "مثل شعلة شاعرية ألقيت من السماء، فأضاءت هذه
الشعلة الشعراء الآخرين، كما تضاء الشموع" (٣٩).

(٣٧) عن س. ايراموفيتش، بوشكين فى عام ١٨٣٧، «ما قبل المباراة الأخيرة»، ليننجراد، ١٩٨٩، ص ٢٦٢.

(٣٨) أ. بوشكين فى ذكريات المعاصرين، (مرجع سابق)، ص ٦.

(٣٩) ن. جوجول «المؤلفات الكاملة، موسكو، ١٩٣٧-١٩٥٢، ج ٢ ص ٣٨٥.

هذه المختارات

تضم هذه المختارات جزئين:

فى الجزء الأول مختارات من قصائد بوشكين التى تناولت موضوعات الحرية، والعدالة، والشاعر والكلمة.

أما الجزء الثانى فيضم:

١ - مقدمة وترجمة «نافورة باختشى سراى» نموذجاً للبؤىما الرومانتيكية فى إنتاج بوشكين، والمتحلية بالموضوع الشرقى.

٢ - قصائد من وحى الشرق العربى والإسلامى سبق أن تناولناها بالبحث والدراسة فى كتابنا المشار إليها آنفا.

أما غنائيات بوشكين التى تناولت موضوعات مختلفة مثل الحب، الصداقة والطبيعة، الموت وغيرها فسوف يخصص لها الجزء الثانى من المختارات.

شيدت لنفسى نصبا لم تصنعه يد*،
لن ينسأه المد الشعبى،
يرتفع أعلى من الرأس العاصية
لنصب ألكسندر**
لا، لن أموت كلية، الروح فى القيثاره المقدسة
سيحيا رفاتى، ويفر العفن
سأبقى خالداً ما دام سيحيا
فى الحياة الدنيا شاعر واحد فحسب.
سيتشر خبرى فى روسيا العظيمة بأسرها،
وستنادينى كل لغة كائنة بها،
وحفيد السلاف الفخور، والفنلندى***،
والبربرى الآن التولجوس والكالميك**** صديق السهول

* قصيدة بوشكين التى اختير منها مقطعاً، ليزين به نصبه التذكارى فى موسكو.

** بناء القيصر ألكسندر تخليداً للذكرى الانتصار فى الحرب الروسية النابليونية.

*** كانت فنلندا وقتها تابعة لروسيا.

**** التوجوز أقلية عرقية لها أصل منغولى، والكالميك بعضهم يعيش فى سيبيريا.

وسأظل طويلا عزيزا على وطني
لأننى قد أيقظت بقيثارتى مشاعر طيبه،
ولأننى باركت الحرية فى زمنى القاسى
وناديت بالشفقة على الساقطين.

لأمر إلهى، آه يا ربة الشعر، كونى مطبعة،
لا تخافى ضيماً، لاتنشدى إكليلا.
تقبلى المديح والنميمة لا مبالية.
ولا تنازعى الأحق.

الحرية (١٨١٧) *

اركضى، اختبئى عن الأعين،

أيتها القيصرة الضعيفة «تستيرى»!

أين أنت، أين أنت، يا عاصفة القياصرة،

يا منشدة الحرية الأبية؟

أقبلى، انزعى عنى الإكليل،

حطى القيثارة المترفة...

أود أن أشدو بالحرية للعالم،

وأن أذهل العيب فى العروش.

اكشفى لى الأثر النبيل

لذاك الجال** الرفيع،

* القصيدة منشورة فى المؤلفات الكاملة لبوشكين فى عشرة أجزاء، ج١ لينتجراد، ١٩٧٧، ص ٢٨٣ -

٢٨٧. وفيما بعد سوف نعتمد على هذه الطبعة فى اختيار القصائد.

** «جال» المقصود هنا هو الشاعر الفرنسى الثائر إكوشار ليرين (١٧٢٩-١٨٠٧).

لمن وسط المآسى المجيدة
أوحيت بالأناشيد الشجاعة.
يا أرباب المصير العاصف،
يا طغاة العالم ! ارتعدوا !
أما أنتم، فتجلدوا وانصتوا،
انهضوا أيها العبيد الساقطون

هيهات ! إلى أين أرنو بنظري
سياط في كل مكان، أغلال في كل مكان،
عار مميت للقوانين،
دموع الأسر الواهنة؛
سلطة جائرة في كل مكان
في ظلمة الخزعبلات الكثيفة
تربعت: عبقرية العبودية العاصفة
والولع القدرى للمجد

فقط هناك فوق الرأس القيصرية
لم ترقد آلام الشعوب
حيث تقترن فى قوة بالحرية
المقدسة قوانين باطشة
حيث تنبسط على الجميع حربتهم القوية
حيث ينزلج سيفهم بلا خيار
على المواطن المضغوط
بيدين مغلولتين فوق الأعين المتكافئة
والجريمة من أعلى
تصرع بمدى متكافئ
حيث لم تظفر يداهم
لا بالبخل الشديد، ولا بالخوف
أيها الحكام! لكم الإكليل والعرش
يعطيها القانون - لا الطبيعة،

قفوا أنتم فوق الشعب،
لكن القانون الأبدى فوقكم

والويل، الويل للعشائر
حيث يغفو القانون بلا حذر
حيث سيادة القانون ممكنة
إما للشعب، أو للقيصرية
أدعوك شاهداً،

آه يا من تعذبك الأخطاء المجيدة
للأجداد في صخب العواصف غير البعيدة
التي اثنت رأس القيصر

يصعد «لودفيج» إلى الموت
على مرأى السلالة الصامتة،
يحنى رأساً منزوعة
إلى النطع الدموي حانث القسم

تسقط البلطة الأثمة...

هذا وذاك الرداء الأثم

يرقد على الفرنسه المغللين

أيها الحاكم الشرير

أمقتك أنت وعرشك

حتفك، موت الأطفال

أراه في سعادة قاسية

أقرأ على جبينك

بصمة اللعنة الشعبية

أنت رعب العالم، عار الطبيعة،

أنت لوم الله على الأرض.

وحين تبرق نجمة منتصف الليل

على نهر النيفا الحزين

ويُثقل النوم الهادئ،

الرأس الخالية الهموم
يحدق المنشد المتأمل
النائم بين الظلمة عابساً،
فى النصب المقفر للطاغية،
القصر الملقى فى النسيان
ويسمع «كلى» صوتاً مريعاً
خلف الحوائط المريعة هذه
آخر ساعة «لكاليجولا» *
يراهما فى حيوية أمام مقلتيه،
إنه يرى: فى الأوشحة والنجوم،
يسير القتلة المتدثرين
يغمرهم الخمر والحنق،
الوقاحة على وجوههم، والرعب فى القلب

* إمبراطور روماني (القرن الأول) عُرف بالقسوة والبطش، وكان محاطاً بالكراهة والمؤامرات التي انتهت بمصرعه.

يصمت الحارس غير الوفى،
جسر صاعد منكس فى صمت،
بوابات مفتوحة فى ظلمة الليل
بيد الخيانة المأجورة...
آه يا للخزى، آه من هول أيامنا!
كأنهم وحوش، اندفع الجندا
تسقط ضربات بلا مجد...
مات الشرير المقلد.

والآن، تعلموا، آه يا قياصرة:
لا العقاب، ولا الجزاء،
ولا دماء السجون، ولا المذابح
ليست سياجا وفيا لكم.
احنوا رءوسكم قبل الآخرين
أسفل الظل الأمن للقانون،

وستصبح حرية الشعوب وسكيتها
الحارس الأبدى للعرش.

إلى تشاداييف (١٨١٨) *

أترفنا لوقت قصير خداع
الحب، والرجاء، والمجد الوديع،
تلاشى لهو الشباب،
كأنه الحلم، كأنه ضباب الصباح،
لكن ما تزال تشتعل بداخلنا رغبة،
تحت وطأة السلطة القدرية،
بروح متلهفة
نصغى إلى نداء الوطن
نتنظر فى قلق أملاً
فى لحظات الحرية المقدسة،
مثلما ينتظر شاب محب،
لحظات اللقاء الصادق.

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، (مرجع سابق)، ج١، ص ٣٠٧. وتشاداييف هو أديب، شارك فى الانتفاضة الديسمبرية.

ما زلنا نشتعل بالحرية،
ما زالت القلوب حية للشرف،
يا صديقي، فلنكرس الوطن
نفحات القلب الرائعة!
يا رفيق، صدق: ستبزغ هي
نجمة السعادة الأسرة،
وستنهض روسيا من النوم،
وعلى حطام الحكم المستبد
سُتكتب أسماؤنا!

السجين * (١٨٢٢)

اجلس وراء القضبان فى زنزانة رطبة
نسر يافع تربى فى الأسر،
رفيقى الحزين، يخفق بجناحه،
وينقر أسفل النافذة قوته الدموى،

ينقر، ويلقى، وينظر من النافذة،
كما لو كان يفكر مثلى
ينادى بنظرته وصياحه
ويود أن ينبس: «دعنا نطير!»

نحن طيور حرة، حان الوقت، يا أخ، حان الوقت!
إلى هناك حيث يبيضُ جبل السحاب،
إلى هناك، حيث تزرُق النواصى البحرية،
إلى هناك، نتنزه ريح فحسب.. أجل، أنا!..»

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٢، ص ١٢٠.

فى عمق مناجم سيبيريا * (١٨٢٧)

حافظوا على الجلد الأيى
لن يضيع جهدكم الشجى
ورغبة الفكر الرفيع

شقيق التعاسة الوفية
الرجاء فى القبو الكتيب
سيوقظ النشاط والمرح،
ويأتى الوقت المنشود:

الحب والصدقة إليكم
سيصلا عبر المزاليج الكثية
حالما يصل صوتى الحر

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة (مرجع سابق) جـ ٣، ص ٧٧.

إلى جحور أشغالكم الشاقة
ستسقط الأصفاد الثقيلة،
تهوى السجون: والحرية
ستلقاكم فرحة عند الدخول،
والإخوة سيعطوكم السيف*.

* كتب بوشكين هذه القصيدة للثوار الديسمبريين المعتقلين في سيبيريا واعطاها لزوجته الديسمبري مورافيواف التي سافرت لزيارة زوجها.

القرية * (١٨١٩)

تحية لك، أيها الركن الخلوى،
مرفا السكينة، والكد والإلهام
حيث ينساب سيل أيامي الخفى
فى حضن السعادة والنسيان
أنا ملكك: استبدلت بالبلاط المعيب «التسيري»
وبالولائم الفخيمة، وباللهو، وبالضلال
الصخب المسالم لغابات البلوط، وهدوء الحقول،
والدعة الحرة، صديقة التأمل.

أنا ملكك: أحب هذه الحديقة المظلمة
بيرودها وزهورها
هذه المروج تصفها أكداس القش العطرة

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج١، ص ٣١٨ - ٣١٩.

حيث تصبح الجداول فى الشجيرات،
أمامى فى كل مكان لوحات متحركة:
هنا أرى سهولاً سماوية لبحيرتين
حيث يبيض أحياناً شراع الصياد،
وخلفها بضعة نلال وأشرطة الحقول،
وعلى البعد تتناثر بيوت ريفية
قطعان متجولة على الشواطئ الندية،
مناشف الحبوب الداخنة، طواحين باجنحة،
فى كل مكان آثار الراحة والدعة...

أنا هنا مُحرّر من أغلال البهرجة
أتعلم أن أجد السعادة فى الحقيقة،
بروح حرة أهيم بالقانون،
لا أصغى لضجر الجمع الجاهل
أجيب بالمعطف على الرجاء الخجول

ولا أحسد قدراً
لشرير أو أحمق: على علو لا يستحقه

يا قارئى طالع القرون، هنا أسألكم!
فى الخلوة الوقورة

صوتكم السار يسمع أكثر.
يطارد الحلم العابث للذة،
يثمر حمية للعمل بداخله،
وأفكاركم المبدعة
تنضج فى عمق الروح

لكن فكرة مفزعة، تكدر روحى هنا:
بين الحقول الزاهرة والجبال
صديق الإنسانية يلحظ فى شجن
عار الجهل المميت فى كل مكان.

دون أن يرى دموعاً، دون أن يسمع أنيناً
أناس يهلكون ينتقيهم القدر،
هنا سادة بريرون، بلا مشاعر، بلا قانون،
يستأثرون قهراً لأنفسهم على الكرامة،
والكد، والملك، ووقت الفلاح
ينحنى على محراث غريب، يخضع للسياط،
هنا عبودية تجر جر الهزيل تحت حكم
مالك لا يرحم.
هنا نير شاق يجذب كل شيء حتى اللحد.
ودون أن يجران على أن تصبو الروح للأمال والرغبات
هنا تزدهر الفتيات الشابات
من أجل لهو شرير بلا مشاعر.
الأبناء الصغار، رفاق الكد،
يمضون من كوخهم العزيز ليضاعفوا أنفسهم
حشود العبيد المعذبين في خدمة الملاك.

آه، لو أن صوتى يقدر على أن يقلق القلوب!
لَمْ تشتعل فى صدرى حرارة عقيمة،
ولم بمنحنى القدر موهبة البليغ المتوعدة؟
فهل سارى يا أصدقاء شعباً لا يظلم
وعبودية هاوية تأخذ بلب القيصر،
وهل سيزغ فى النهاية فجر
الحرية المستتيرة فوق الوطن؟

الشاعر والجمع * (١٣٢٨)

PROCUL ESTE, PROFANI**

الشاعر بقيثارة ملهمة
كان يدندن بيد شاردة
كان يغنى: أما الجمعُ الفاتر
المتعال غير العليم من حوله
فكان ينصت إليه بلا معنى.

وفسرت السوقه المتبلدة:
«لم يغنِ هكذا في طلاوة؟
عبثاً يذهل الأذان،
إلى أى هدف يقودنا؟
بماذا يطنطن؟ ماذا يعلمنا؟
لماذا يقلق القلوب، ويعذبها
مثل ساحر جامع؟

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج٣، ص ٨٥.

* اقتباس عن فرجيل.

كما الريح حرة أغنيته،
وفى المقابل عقيمة كما الريح:
فأى فائدة لنا منها؟»

الشاعر

فلتصمت أيها القوم التافه،
يا أجير، يا عبد الحاجة، والشواغل !
ضجرك الوقح لا أحتمله،
أنت دودة الأرض، ولست ابن السماء؟
الفائدة عندك فى كل شيء: بوزنها
أتقدر المعشوق «بيلقدير»*
لا تبصر النفع به، النفع.
لكن هذا المرمر إله ! فماذا إذن؟
موقد البازلأء أئمن عندك:
لأنك تطهو الطعام لنفسك به.

السوقة

* تمثال لإله الفن.

لا، إذا كنت مختار السماء،
موهبتك، مبعوثة الإله،
فلتستغلها لصالحنا:
تصلح من قلوب الجمع.
نحن صفار النفس، ماكرون،
لا نخجل، أشرار، ناكرون،
نحن بالقلب كالخصيان الباردون،
وشاه، عبيد، حمقى،
تسكن العيوب بنا عمودا،
أنت تقدر! وأنت تحب القريبى
على أن تعطنا دروساً شجاعة،
أما نحن فسنسمعك،

الشاعر

أغربوا عني، أى حاجة
للشاعر المسالم بكم!

تتجرون فى الفن فى شجاعة:
لن ينعمشكم صوت القيثارة!
كريهون أنتم على النفس كالنعوش.
بسبب الحمافة والحنق، وحنقكم
ملكتم حتى الآن
السياط، والزنازن، والبُلط،
كفى منكم عبيداً بلا عقل
فى مدنكم، ومن طرقاتكم الصاخبة
يكنسون القمامة: جهد نافع!
ولكن بعد أن تناسوا خدمتهم،
المعبد والقربان
هل يأخذ الكهنة عندكم المكنسة؟
ليس من أجل القلق الدنيوى،
ليس من أجل المنفعة، ولا من أجل الممارك،
ولدنا نحن من أجل الإلهام،
من أجل الاصوات العذبة والصلوات

إلى الشاعر * (١٨٣٠)

أيها الشاعر! لا تحرص على الحب الشعبي
فسيمضي صخب لحظة المديح المبتهج،
ستسمع حكم الاحمق وضحك الجمع الفاتر:
لكن فلتبق أنت ثابتا، ساكنا، صارما.

أنت قيصر، فلتعش وحيدا، بالحرية العالية
إذهب، إلى أين يجرك العقل الحر،
حسن ثمار الأفكار الحبية
دون أن تنشذ جزءاً على المأثرة النبيلة.

هي بداخلك أنت. أنت حكم نفسك الأعلى
أنت تقدر على تقييم جهدك أكثر من الآخرين

* أ. بوشكين المؤلفات الكاملة، ج٣، ص ١٦٥.

فهل أنت راضٍ عنه، أيها الفنان الحازم
أراضٍ؟ إذنفلتدع الجمهور يسبه
ويبصق على المحراب، حيث يتقد لهبك،
ويهتز حاملك المثلث في رشاقة طفولية.

صدى * (١٨٣١)

أيزار الوحش فى الغابة الصماء،
أينفخ فى الصور، أيدوى الرعد،
أتغنى الفتاة خلف الراية
على كل نغمة
صداك فى الهواء الأجوف
تحدثه فجأة أنت.

أنت تصفى إلى قصف الرعد،
وصوت العاصفة والموجات العالية،
وصياح رعاة الريف
وترسل ردا؛
فما من جواب لك هكذا
أنت أيضا، أيها الشاعر!

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٣، ص ٢١٤.

مختارات من «شرقيات»

بوشكين

نافورة «باختشى سراى»

الشهيرة «بنافورة الدموع»

تعد بؤئيسما (القصة الشعرية) «نافورة باختشى سراى» من أهم مؤلفات ألكسندر بوشكين التى تعكس سمات الرومانتيكية فى فنه، وعلاقتها بالموضوع الشرقى فى إنتاجه.

«كم من العشائر الموجودة فى روسيا، المؤمنة برسالة مسحمد (ص) وتعمل فى مجال الخيال فى ملتقى يربطنا بالشرق. وهكذا فإن الشعراء الروس. دون أن يخرجوا خارج حدود وطنهم يمكنهم أن يعبروا من الأساطير الصارمة الكثيرة للشمال إلى الخيال الفخيم البراق للشرق^(١).

بهذه الكلمات عبر الناقد سوموف عن قرب الشرق من التجربة الفنية للأدباء الروس وتأثيره عليها.

وها هى بؤئيسما «نافورة باختشى سراى» واحدة من هذه الأعمال الأدبية التى تشهد على تأثير خيال الشرق على الأدباء الروس، فقد كُتبت أشعارها بوحى من زيارة بوشكين لقصر «باختشى سراى» الموجود فى شبه جزيرة القرم التى زارها بوشكين وهو فى طريقه إلى المنفى.

(١) أ. سوموف، عن الشعر الرومانتيكى موسكو، ١٩٨٣، ص ٢٣.

اقترب بوشكين من حياة الشرق فى أكثر من زيارة له للقرم والقوقاز طلبا للاستشفاء، أو فى ظروف المنفى. لقد لعبت سنوات المنفى فى الجنوب، والرحيل إلى القوقاز والقرم وكشينيوف (١٨٢٠-١٨٢٣) دورا هاما فى التطور الفكرى والإبداعى للشاعر الكبير، فقد كان لتجربة المعيشة الذاتية للشعوب الشرقية التى تقطن هذه المناطق، والاحتكاك بالعارفين بترائها أهمية كبيرة بالنسبة لإنتاجه، وخاصة إبداعاته التحلية بالموضوع الشرقى. فضلا عن أهمية هذه الفترة بالنسبة للتكوين الفعلى لبوشكين، فقد كانت وقتا للعمل المثابر، التأملات، القراءات.

ويرتبط بفترة الإقامة فى الجنوب - وكما اشرنا آنفا - معظم إنتاج بوشكين من البوئيمات الرومانتيكية مثل «أسير القوقاز» (١٨٢١)، و«نافورة باختشى سراى» التى كتبها فى الفترة من عام (١٨٢١-١٨٢٣) وظهرت فى عام ١٨٢٤.

وقد أشار بوشكين بنفسه إلى ثراء تجربته الإنسانية فى تلك الفترة التى كانت بالنسبة له فترة «الخليط الازياء، والوجوه، والعشائر، واللهجات المحلية، والأوضاع»^(٢).

وشبه جزيرة القرم التى زارها بوشكين كان يحكمها منذ القرن الخامس عشر سلالة خانات التتار، وكانت تضم فى عدادها الأراضى التتارية والمنغولية. ثم سقطت تحت حكم الأتراك فى نهاية القرن الخامس

(٢) ١. بوشكين، المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، ج٤، ص ١٤٥.

عشر، ثم وقعت بعد ذلك تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية فى عام (١٧٨٣).

ومن وحي تاريخ خانات القرم كتب بوشكين قصته الشعرية «نافورة باختشى سراى» التى ظهرت فى نسيج فنى ثرى يجمع بين الذاتى والموضوعى، والأسطورى والتاريخى والغنائى.

ويرتبط مضمون القصة الشعرية «نافورة باختشى سراى» بأسطورة تتناولها الأجيال فى شبه جزيرة القرم عن الخان التتارى جبرى الذى تمكن فى غزوة له فى بولندا من أسر الأميرة البولندية ماريا، ويقع الخان فى حب أسيرته الجميلة التى يحاول اكتساب حبها، إلا أن الأميرة تنفر منه، وتغرق فى حزن وأسى على فراق وطنها.

تراقب زاريمان زوجة الخان الأثيرة محاولات زوجها اكتساب حب الأميرة البولندية، وزاريمان فى «نافورة باختشى سراى» هى ابنة القوقاز الجورجية الأصل التى ساقها القدر إلى شبه جزيرة القرم لتنضم إلى حريم الخان.

وتحاول زاريمان الحيلولة دون تعلق زوجها بالأميرة البولندية إلا أن محاولاتها تبوء بالفشل، فالخان يمضى فى حبه للأميرة البولندية ويزداد هياماً بها، مما يدفع بالزوجة زاريمان التى تمتلكها غيرة مجنونة إلى قتل غريماتها الأميرة البولندية لتنال بدورها الموت. وتخلدا لذكرى محبوبته

البولندية يقوم الخان بتشيد «نافورة باختشى سراى» التى اشتهرت باسم «نافورة الدموع».

- ٢ -

كثيرون مثلى،
زاروا النافورة هذه

... ..

يستهل بوشكين «نافورة باختشى سراى» باقتباس عن الشاعر
سعدى مؤكدا على زيارته للموقع الذى جرت فيه أحداث مؤلفه، ورؤيته
«لنافورة الدموع» التى أوحى إليه بعنوان «نافورة باختشى سراى».

استقى بوشكين معلوماته عن قصة الخان التترى والأميرة البولندية،
وعن الإطار التاريخى للقصة من مصادر عدة، منها رواية رايفسكى الذى
رافقه إلى رحلة القرم، وحكايات الرحالة، وبعض المصادر التاريخية التى
تناولت حكم خانات التتار^(٣).

أعطت المصادر التاريخية فرصة التعرف على ملامح من سيرة الخان
كريم جيرى الأقرب من بين خانات التتار إلى صورة بطل «نافورة باختشى

* أشير إلى بعض المصادر التاريخية التى رجع إليها بوشكين مثل كتاب: «Histoire de Crimee» والذى ربما
كان كتاب سيستريتنسيف «Haistoire de la Tauride» انظر المؤلفات الكاملة لبوشكين فى عشر اجزاء، جزء ٤،
ص ٤١٨، مرجع سابق.

سراى»، وهو يبرز بوصفه قائداً بارزاً، وعاملاً اجتماعياً، ودبلوماسياً محنكاً، فضلاً عن تمتعه بقدر كبير من التعليم، والقوة الفيزيائية. وقد شهد عصره حقبة من البناء والتعمير الذى يتسم بالفخامة والأبهة.

إلا أن ملامح صورة الخان كريم جبرى تختلف فى بعض جوانبها التاريخية والعسكرية عن الصورة الفنية التى رسمها بوشكين. ويبدو أن بوشكين قد جمع فى صورته الفنية ملامح متفرقة من خانات القرم، وربما لهذا يمكن تفسير إطلاقه لقب العائلة «جبرى» على بطله، فجبرى هو اسم سلالة خانات القرم، وقد أشار بوشكين نفسه إلى أن جبرى «هو اسم سلالة كل خانات القرم»^(٤). غير أن التاريخى يتضح - على نحو خاص - من خلال بث أريج العصر التاريخى الذى خرجت من بين جنباته الأسطورة، فقد حاول بوشكين أن يشيد فى «نافورة باخشى سراى» لوناً ووقتاً محدداً من الزمان؛ لذا نجد أن الخلفية التاريخية المواكبة لصورة الخان تتسم بالدقة فى رسم مناظر الطبيعة المميزة للقرم، وفى إعطاء لمحات من الحياة السلمية لأهالى القرم.

وتشغل مناظر الطبيعة فى بؤثيمات الجنوب الرومانتيكية - بشكل عام - مكانة كبيرة، وهى ليست مجرد خلفية براقية، بل هدف كامل القيمة

(٤) أ.د. بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج٤ ص ٤١٨.

يعكس نهج الرمانتيكين فى تجسيد الصبغة القومية، والملامح المميزة للمكان، وأيضا التمايز القومى للطابع الإنسانى.

وقد برع بوشكين فى إبراز هذا التمايز فى الطابع من خلال المقابلة بين شخصيتى زاريمما زوجة الخان الجورجية والأميرة البولندية ماريما. فهى زاريمما الجنوبية ابنة القوقاز الجورجية تتميز بحرارة مشاعر أهل الجنوب، وبالتوقد فى الحركة، والغيرة العاصفة المدمرة.

ولدت زاريمما فى جورجيا فى القوقاز فى ظروف الحضارة المسيحية (اتخذت جورجيا الديانة المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع فى شكل ديانة رسمية)، لكنها انتزعت من موطنها فى القوقاز، ونقلت إلى القرم المسلم لتنضم إلى حريم الخان، لكنها أحبت الخان وتمكنت بفضل جمالها وتوهجها من أن تصبح زوجته الأثيرة إلى أن ظهرت الأميرة البولندية فى حياة الخان فانصرف عن حبها.

ويتضح طابع زاريمما المتوقد - خاصة - فى لقطة اللقاء والمواجهة مع غريماتها البولندية، حيث يعكس حديث زاريمما فورة المشاعر بداخلها، فهى تتحدث بلغة الرغبات والتوهج الداخلى فى تعبيرات متعجلة، مضطربة، متقطعة، لغة تعكس التوتر الداخلى والاضطراب.

وفى المقابل يرسم بوشكين صورة للبولندية ابنة الشمال التى لا تفهم لغة الرغبات التى تتحدث بها زاريمما. إن جمال ماريما يصفه بوشكين

«بالهدوء»، و«البرود»، وطابع ماريا يعكس البراءة، والخجل، والتواضع. إنها حقا صورة رومانسية للفتاة الأوربية من القرون الوسطى! ويجسد بوشكين مأساة الأميرة الحزينة المنعزلة في أسرها في قصر «باختشى سراي» بعد أن عاد بها الخان من حملته على بلادها تاركاً وراءه الموت والدمار.

- ٣ -

الخان العاصف قهره حب ماريا الأسيرة، بات حزيناً، مهموماً، ساخطاً، إنه يتعذب لحب ماريا التي لا تبادله الحب. ورغم ما تتسم به ماريا من «جمال بارد»، إلا أنها قلبت حياة الخان رأساً على عقب، وبدلت طبيعة الطاغية، فقد هجر الحرب وملها، ولم يعد يدرى نفسه لماذا أحبها ونسى من أجلها حب زاريمما وحريمه.

إن قصة حب الخان جيري غير المتبادلة تحمل في طياتها قصة حب مشابهة من طرف واحد عاشها الشاعر بوشكين نفسه في فترة الجنوب، وفي هذا الملمح تتضح سمة هامة من سمات منهج بوشكين الرومانتيكي؛ ألا وهو المزج بين «الذاتي» و«الموضوعي»، والتعبير عن الذات في البطل.

ورغم إعراض ماريا عن حب الخان جيري، إلا أنه يشفق عليها ولا يقترب منها، ويعامل أسيرته في نبل وسماحة كما أوصى القرآن بالأسرى. ونحن نرجح تأثر بوشكين في تصوير قصة حب الخان التتري للأميرة البولندية بقصص الحب العذري، ولا سيما قصة «مجنون ليلي».

ويرجح هذا الاحتمال الاهتمام الكبير الذى حظى به شعر الغزل العربى والفارسى فى أوساط الشعراء الروس فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى» وهى الفترة المواكبة لظهور «نافورة باختشى سراى». وقد حاول بوشكين نفسه أن ينسج بعض القصائد على منوال قصائد الغزل العربية والفارسية.

وتعد قصة «مجنون ليلى» من أشهر قصص الحب العذرى فى الأدب العربى التى انتقلت إلى آداب عدة منها الأدب الفارسى؛ حيث تأثر بها شاعر الفرس الكبير سعدى فى «بستان» و«كلستان»، وقد أولع بوشكين ولعاً كبيراً بسعدى، وصدر «نافورة باختشى سراى» - كما أشرنا آنفاً - باقتباس من سعدى.

بالإضافة إلى ذلك فقد قدم المستشرق بولديرىف مقتطفات من ترجمة «مجنون ليلى» إلى الروسية فى مجلة «مخبر أوربا» فى عام ١٨١٨، وهى المجلة التى كان يطالعها بوشكين ورفاقه فى فترة دراسته فى الليسيه^(٥).

إن قصة حب الخان للأميرة البولندية تتوازى فى خيوطها مع قصص الحب العذرى، فالخان العاصف الذى تعود أن ينال المتعة مع حريمه دون أن يكثرث بالمشاعر، يلتزم العفاف والطهر فى حبه لماريا ويتألم لإعراضها عنه، وبعد موتها «يسكب الدمع الحار نهراً».

* عن د. لويكوف، بوشكين والشرق، موسكو، ١٩٧٤، دار نشر العلم، ص ٩.

إن هذه المثالية التي يخلصها بوشكين على حب جيرايى هي خير تعبير عن «عذوبة الحب» التي أوحى بها الشرق العربى إلى الشعر الرومانتيكى الأوربى، والتي أشار إليها بوشكين نفسه مؤكدا على تأثيرها: «هناك عاملان كان لهما تأثير حاسم على روح الشعر الأوربى هما: غزو العرب والحروب الصليبية، فقد أوحى العرب إلى الشعر بالنشوة الروحية وعذوبة الحب، والولع بالرائع والبلاغة الفخمة للشرق، واكسبه الفرسان الشهامة وبساطة الروح ومفاهيم البطولة وحرية الشعوب... هكذا كانت البداية الرقيقة للشعر الرومانتيكى.»^(٦)

-٤-

«الرائع»، البلاغة «الفخمة»، «العذوبة» كلمات أطلقت على وصف الأسلوب الشرقى فى الشعر الروسى. ويفسر الناقد الروسى فريدمان «الفخامة» فيصفها بأنها «كلمة تنتمى إلى جانب البصرى والصوتى للصور الفنية ويعنى قبل كل شئ «الثراء»، ومثل هذه الفخامة تمتزج عادة بالواقع السمعى الجميل للقصيدة، وعليه فإن «الاسلوب الشرقى للرومانتيكيين الروس يمكن تسميته ليس فقط بالفخم، بل أيضا «بالعذب» وفى المحصلة فإن المزج بين «الفخم» و«العذب» يجب أن يغمس القارئ فى جو من الرائع، الذى لا يشبه العادى فى شئ»^(٧).

(٦) أ. بوشكين، عن الشعر الكلاسيكى والرومانتيكى المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، ج٧، ص ٢٥.

(٧) أ. فريدمان «الرومانتيكية فى إنتاج بوشكين» موسكو، ١٩٨٠، ص ١٠٢.

لقد تمثلت «الفخامة» بالنسبة لادباء الرومانتيكية الروسية فى استلهاهم الطابع الشرقى المتوقد، وفى تصوير نمط الحياة الشرقية، وطبيعة الشرق، وايضا فى اقتباس بعض عناصر «الأسلوب الشرقى» الذى تكثر به المقارنات والتشبيهات المقترنة بمفردات الحياة الشرقية، والمستلهمة عن عالم الشرق.

لذا فإن بوشكين ينتقى بعناية كبيرة مفردات اللوحة الشرقية البراقة فى «نافورة باختشى سراى» فزوجات الخان الحميلات يشبهن «الزهور العربية» وهى يحملن «شرباتا» شذيا، وكلمة شربات بالروسية قريبة. فى نطقها من العربية، ويسهر على حراسة الزوجات عبد خصى، يحفظ الأمانة كما أوصى القرآن، والقرآن يكتب بنطقه بالعربية، والعبد واع لكيد النساء الذى حدثنا عنه حكايات الليالى. وزارىما التى كان يعذبها انشغال زوجها عن حب الأميرة البولندية يشبهها بوشكين فى صمودها بالنخلة عروس المنظر الطبيعى العربى، ورمز الصمود أمام الزمن والعواصف، وزارىما حين تتوسل إلى الاميرة البولندية أن تترك لها زوجها الخان تستحلفها بالقرآن.

وتعكس «الأغنية التتارية فى «نافورة باختشى سراى» معرفة بوشكين بالتصورات الإسلامية، فالقرآن يبشر الشهداء بالجنة، حيث النعيم والحرور الحسان، والناسك الزاهد تجازيه السماء خير الجزاء، فهو فى الكبر يزور مكة، وهى زيارة يرنو إليها المسلم ليستكمل أركان دينه.

إن البصمة الشرقية تظهر كذلك فى لوحات وصف طبيعة القرم غير المألوفة، وفى مشاعر الشخصيات، وفى الأسلوب.

إن «باختشى سراى» بشكل عام تعكس فخامة الألوان، والصور، والتصوير الشعرى لطبيعة القرم، وموسيقية القصيد وانسيابيته، وقد شاهد فيها الناقد الكبير بيلينسكى «خطوة إلى الأمام فى جانب الشكل. القصيد أفضل، الشعر أكثر فخامة، وأكثر أريحا»^(٨) وقد ظهر بناء «نافورة بافتشى سراى» على شكل كادرات مستقلة يجمعها شريط الذكريات، وتتألف هذه الكادرات من قصص مستقلة منفردة، ومنتهية، يغيب فيها التعاقب الزمنى.

ونافورة «باختشى سراى» هى خير تجسيد للتركيبة «الشرقية الغربية» التى اشتهد بها انتاج بوشكين المتأثر بالشرق والذى يمزج فى براعة بين العناصر المستلهمة عن ثقافات الشرق وبين التقاليد القومية.

(٨) ف. بيلينسكى، دراسات ومقالات نقدية (١٨٤٣-١٨٤٨)، موسكو، ١٩٤٨، ص ٤٤٤

نافورة باختشى سراى*
(١٨٢١-١٨٢٣)

كثيرون مثلى،
زاروا النافورة هذه، لكن
البعض ما عاد موجودا، والبعض الآخر تجول أبعد.
سعدى

(١٨٢١-١٨٢٣)

كان جبرى يجلس، ويغض بصره،
نرجلية كهربائية تدخن فى ثغره،
الحاشية خانعة واجمة
تراحمت حول الخان العبوس.
كل شىء كان ساكناً فى القصر،
وفى تبجل قرأ الجميع
علامات السخط والحزن
على وجهه المكفهر.
لكن الأمر المختال

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، مرجع سابق، ج٤، ص ١٣١-١٤٥.

لوح بيد ملولة:
فانحنى الجميع، وانصرفوا عنه.

وحيد هو فى مخادعه
صدره يتأوه حرا اكثر،
جبينه الصارم يتتعش أكثر
قلبه يبدى قلقا.

ما الذى يهز الروح الشامخة؟:
أى فكرة تشغله؟
هل سيشن حربا جديدة على روسيا،
أم سيحمل شريعته إلى بولندا،
هل يشتعل بانتقام دموى،
أم اكتشف مؤامرة فى الجند،
هل يخشى شعوب الجبال،
أم دسيسة لجنوى* المخادعة؟

* أسس الجنويون الجنوبيون مستعمرات عند الشاطئ الجنوبي للقرم فى القرن الثالث عشر، واحتفظوا بحقوقهم حتى عام ١٤٧٥ حين حط الأتراك، وحطموا كل المستعمرات فى القرم التابعة لجنوى.

لا، فقد ملّ المجد المشين،
كلت يده العاصفة،
الحرب بعيدة عن الفكر.

أحقاً خيانة في حريمه
وسارت في طريق آثم،
ابنة الرق والأسر
وسلمت قلبها لجياور؟

لا، فزوجات جيرى الخجليات
لا يفكرن، ولا يجسرن على الرغبة،
يزدهرن في هدوء شجى،
في حراسة يقظة فاترة
في أحضان الملل الكئيب
لا يقترفن خيانة

فى ظل زنزانة حافظة
مخفى جمالهن:
هكذا الزهور العربية
تعيش خلف آنية مكنونة.
تمر عليها الأيام، والشهور، والصيف
فى وتيرة كثية
ودون أن يشعروا
يذهب الشباب، والحب وراءهن
كل يوم رتيب،
والساعات تنساب فى بطاء.
الكسل سيد الحياة فى الحرىم:
المتعة نادراً ما تلوح.
الزوجات الشاباى بطريقه ما،
وهن يرغبن فى خداع القلب
يغيرن الحللى الفاخرة،

يقمن اللهو، والأحاديث.

أو في صخب المياه الحية

فوق تيارها البراق،

في قرة الأشجار الكثيفة

يتنزهن في أسراب خفيفة.

يسير بينهن خصى حانق،

عبثاً الفكاك منه:

فنظرته الغيورة وسمعه

يتعقبهن جميعاً دائماً.

بجهد استقر

نظام أبدى. رغبة الخان

ناموسه الوحيد،

وصية القرآن المقدسة

يرقبها في حراسته.

روحه لاتنشد حباً؛

كالصنم، يتحمل
الازدراء، الكره، اللوم،
إهانات العبث القبيح،
السخرية، الرجاء، النظره الخجلى،
والتهيدة الهادئة، والمثملة الفاترة.
معلوم له طبع النساء،
فقد ذاق قدر مكرهن
وفى العتق، وفى الأسر
النظرة الحانية، ودمعة اللوم الخرساء
لا سلطان لها على روجه،
فما عاد يصدقهن بعد.

ما إن بسطن شعورهن
حتى سارت الأسيرات الشابات
ليسبحن فى الساعات الحارة،

وتنهمر أمواج العيون
على جمالهن الساحر،
لهومن لا تفارقه الحراسة،
هو هنا، هو يرى، لا مبال،
لسرب الحسناوات العاريات؛
هو بين الحريم فى ظلمة الليل
يتجول بخطى غير مسموعة
يخطو فى هدوء بالأبسطة،
يسترى السمع للأبواب المدعنة،
ينتقل من مقصورة إلى أخرى
فى شاغل أبداً، يرقب
الرقاد الفاخر لزوجات الخان،
ينصت إلى لعنة الليل،
الزفرة، التنهيدة، أدنى خلجة،
يلحظ كل شىء فى لهفة:

وحزن تلك التي نادت
اسماً غريباً بهمس ناعس
أو صديقة عطوفة أمنها
خواطر معيبة!

لما يمتلئ عقل جبرى بالحزن؟
هل خبا الشبق من يديه
لا يتحرك ولا يجروء على التنفس،
الخصى ينتظر إشارة عند الباب.
ينهض الأمر متروياً،
أمامه الباب على مصراعيه، صامتاً
يسير إلى سكنه المحبوب
لزوجات كن من قريب عزيزات

ينتظرون الخان خاليات الوفاض

حول النافورة المداعبة

على الأبسطة الحريرية

جلسن فى جمهرة رشيقة

ينتظرن فى سعادة طفولية،

إلى سمكة تنهادى فى العمق الصافى

للقاع المرمرى.

عمداً أسقط بعضهن لها

فى العمق أقراطاً ذهبية.

بينما حملت الأسيرات حولها

شرباتاً شديداً

وبأغنية رنانة شجية

شدا الحريم فجأة كلهن:

أغنية تاتارية

- ١ -

تهب السماء الإنسان
عوضاً عن الدموع والبلاء الدائم:
فالناسك الناظر إلى مكة
محفوظ في سنوات الشيخوخة الحزينة.

- ٢ -

محفوظ من يضى بموته
شاطيء الدانوب الأغر
فإليه تهرع حورية الجنة
وتلقاه ببسمة راضية.

- ٣ -

لكن ذاك أكثر حظاً، آه يا زاريم،
من كان محباً للدنيا والنعيم،
فلطفك يا عزيزتى، كوردة
فى هدوء الحريم..

هن يشدون. لكن أين زارِما

لجمة الحب، زينة الحرِيم؟

وأسفاه، حزينة وشاحبة

لاقتصت لإطراء،

باتت كنخلة ذوتها عاصفة؛

لا شيء، لا شيء عزيز عليها:

كف جيرى عن حب زارِما.

خانك! ... لكن من

يا جورجية تضارحك الجمال؟

حول الجبين الناصع

عقدت جديلتك مرتين،

عيناك الساحرتان

أصفى من النهار، وأحلك من الليل.

يا من صوتك أحلى تعبير

عن نفحات الرغبات النارية
أى قبلة حادة انعش
من لثماتك اللاذعة؟
كيف للقلب العامر بك
أن يخفق للجمال الغريب؟
لكن جيري اللامبال القاسى
ازدرى حسنك
وساعات الليل الباردة
يقضيها كثيلاً، وحيداً
من وقت سجننت فى حريمه
الأميرة البولندية.

من وقت غير بعيد شاهدت
الشابة ماريا سماوات غريبة،
من وقت غير بعيد ترعرع

جمالها الجذاب فى بلدها ،
كان الوالد المعجوز يفاخر
بها، وينادىها مهبجتي .
رغباتها الطفولية
كانت ناموساً للمعجوز .
كان يدرك شاغلاً وحيداً،
أن يكون نصيب الابنة المحبوبة
ناصعاً كيوم ربيعى،
وأن لا تكدر روحها
لحظات حزن
وأن تتذكر فى رقة
حتى فى زواجها
وقت الشباب، أيام اللهو،
التي مضت كما الحلم الرقيق،
كل شيء فتان بها: الخلق الهادئ،

الحركات المشوقة، الحية
والمقلتان السماويتان الفاتتان
هبتا الطبيعة العزيزة
بالفن كانت تزين،
حفلات الدار
وتبهجها بقيثارة سحرية،
حشد الوجهاء والأثرياء
كان ينشد يد ماريا،
ومن أجلها رزح شباب كثير
فى ألم مكتوم.
لكنها فى صمت الروح
لم تكن قد عرفت الحب
ووقت الفراغ الحر
تكرسه للهو وحده
مع الصديقات فى قصر الوالد

أمن مدة؟ أم ماذا يا ظلمات التار
تدفقت نهراً على بولندا:
ليس بهذا القدر من السرعة المريعة
يتشر الحريق بالحصاد من كل صوب.
تتيمت الناصية المزدهرة،
تلاشى لهو السلم،
واكتأبت القرى وغابات البلوط،
وخلا القصر الفخيم.
حجرة ماريا المضيفة ساكنة...
وفي الكنيسة العامرة، حيث حولها
يهجمون في عزة، في سبات قر،
مع التاج، والشعار الأميرى
شُدت مقبرة جديدة...
الوالد في القبر، والابنة في الأسر
الوريث المقتر يحكم القصر

وبالنار المضنية يذيق

الهوان للبلد الخرب.

وآسفاه قصر باختشى سراى

يوارى الأميرة الشابة.

وهى تذوى فى أسر صامت،

تبكى ماريا وتحزن.

جيرى يشفق على البائسة:

انكسارها، دموعها، أنينها

يقلق الخان نومها القصير،

فيخفف من أجلها

أعراف الحريم الصارمة.

حارس زوجات الخان العبوس

لا يدلف إليها لانهاراً، ولا ليلاً:

لا يرفعها بيد معتنية،

إلى مقصورة النوم،
لا يجرؤ على التطلع إليها
بنظرة عينيه المهانة،
هى فى حوض استحمام خفى
وحيدة فى أسرها،
الخان نفسه يخشى الفتاة الأسيرة
وإثارة الهدوء الشجى،
للحریم فى العزل البعيد
مسموح لها الحياه وحيدة:
ويتراءى فى هذه العزلة
شخص ما غيبى يتخفى.
هناك ليلاً ونهاراً يتقد مصباح
أمام وجه الفتاة الطاهرة
سلوى الروح الملتاعة،
هناك الرجاء فى السكون

يعمر بإيمان وديع،
ويذكر القلب بكل شيء
بالجانب القريب الأفضل...
هناك تسكب الفتاة الدمع
بعيداً عن الصديقات الحسودات
وبينما يفرق كل شيء
حولها من ترف مجنون،
بمعجزة يخفى الركن
السالم الطاهرة الصارمة.
هكذا القلب ضحية الأخطاء،
بين النعيم المعيب
يحافظ على أمانة واحدة،
الشعور الإلهي وحده

* * * * *

* * * * *

حلّ الليل، واكتست بالظل
حقول تافريدا العذبة،
على البعد أسفل ظل الغار الساكن
أسمع شدو البلب،
يسطع القمر خلف جوقة النجوم،
من السماوات الصافية
يصوب ضياءً فاتراً
على الوديان، والتلال، والغابة.
وهن مغطات بطرح بيضاء،
يترائين مثل ظلال خفيفة،
في شوارع باختشي سراى
من منزل إلى منزل، الواحدة إلى الأخرى،
تتعجل الزوجات والازواج بسطاء التار
ليتشاركوا أوقات المساء.
سكن القصر، غفا الحريم

يلفه ترف مريح،
لا يقطعه شيء
سكون الليل. الحراسة موثوقة،
لف الخصى طوفته.
هو الآن نائم. لكن خوف المُجد
يقلق بداخله الروح النائمة
توقع خيانة التعيسات
لا يعطى العقل سكنية
فتارة ثمة حفيف، وتارة همس،
وتارة يخال له صياح،
مخدوعاً بصوت خاطئ،
يستيقظ، يرتجف،
يرهف سمعه المدعور...
لكن كل شيء صامت حوله.
النوافير وحدها صوتها عذب

تتدفق من غياهبها المرمرية،
تغنى البلابل فى الظلام
ولا تفارق الوردة الحبيبة،
الخصى لا يزال ينصت إليها طويلاً،
ومن جديد يكتنفه النوم

كم هو جذاب الجمال المبهم
لليالى الشرق الفاخرة
كيف تنساب الساعات
أمام عشاق الرسول
أى ترفٍ فى ديارهم،
فى الحدائق الساحرة،
فى هدوء الحريم الآمن،
حيث وحى القمر
يملىء كل شىء بالأسرار والهدوء

والهام الرغبات العذبة!

* * * * *

الزوجات جميعهن نائمات. لا تنام واحدة تتنفس

في صعوبة، تنهض،

تسير، بيد متعجلة،

فتحت الباب، في ظلمة الليل

تخطو بقدم خفيفة...

في غفوة مرهقة مذعورة

يرقد الخصى الأشيب أمامها

آه، القلب بداخله لا يلين:

خداع النوم سكينته!..

وكما الشبح، تمر بجانبه

* * * * *

أمامها باب. بحيرة

يدها المرتجفة

لمست المغلاق الصائب
دخلت، تتطلع فى دهشة...
وخوف مبهم تسلل إليها
ضوء مصباح منفرد،
برواز، يضيئ فى حزن،
الوجه الوديع للفتاة الطاهرة
والصليب رمز الحب المقدس،
يا جورجية! كل شىء أوقف
فى نفسك شيئاً ما عزيزاً
كل شىء تتم فجأة بلا وضوح
بنغمات الأيام المنسية
أمامها رقدت الأميرة،
خداها يتعشان
بحرارة حلم العذارى
والدمع يترك أثراً ندياً،

ويلوحا ببسمة مثقلة،
مثلما ينير ضوء القمر
زهرة أثقلها المطر،
بعد أن هبط ابن آدم من السماء
بدا، الملاك هاجعا
و، سكب الدمع غافيا
على أسيرة الحريم البائسة...
وآسفا، زاريمًا، ما خطبك؟
ضاق الصدر بحسرتها
تنحنى الركبتان عفويا
وتبتهل: "لطفًا بي،
لا تنبذ دعواتي!..."
كلماتها، حركتها، أنينها
قطعت نوم الفتاة الهادي.
الأميرة بخوفها إزاء النفس

ترمق الشابة الغريبة
في حيرة، ويبد مرثجفة
وهى تنهضها، تقول:
"من أنت؟ وحدك في وقت الليل؟
لم أنت هنا؟" "جئت إليك،
انقذيني، من مصيرى
بقى لى أمل واحد فيك...
تمتعت بالسعادة طويلاً،
كنت خالية الوفاض أياماً وراء أيام...
وانقضى ظل النعيم،
إننى أهلك. انصتى لى...

لم أولد هنا، بعيداً،
بعيداً... لكن ظواهر الأيام الماضية
حتى الآن محفورة عميقاً فى ذاكرتى.

أذكر الجبال الممتدة إلى السماوات،

الجداول الحارة في الجبال،

غابات البلوط الكثيفة،

شريعة أخرى، طباع أخرى،

لكن لماذا، بأي مصير

تركت ناصيتي وموطني؟

لا أعرف، أذكر البحر وحده

وشخصاً في علو

فوق الشراع...

الحزن والخوف،

حتى الآن، كانا غريباً على،

فأنا في سكينة آمنة

ترعرعت في ظل الحريم

وانتظرت بقلب مذعن

مجارب الحب الأولى.

رغباتى الخفية

تحققت. جبرى لأجل نعيم السلم

ازدرى الحرب الدموية،

وقطع هجماته الوحشية

وتطلع من جديد إلى حريمه

وأمام الخان فى انتظار مبهم

مثلنا نحن. وبنظرة مشرقة

توقف فى صمت عندى

ونادانى... ومن وقتها

ونحن فى نشوة لا تنقطع

نتنسم السعادة، لم تكدرنا مرة

لا نائمة. ولا شك

ولا عذاب غير خائفة

ولم يعكرنا ملل.

ماريا، أنت ظهرت أمامه...

وهيها، روحه من وقتها
كذرها فكر آثم!
جيرى وهو يتنسم الخيانة،
لا ينصت إلى عتابى،
يضايقه أنين القلب،
لا يجد معى.
لا المشاعر السابقة، ولا الأحاديث
أنت لست شريكة الجرم،
أعرف، ليس ذنبك.
إذن، اسمعى، أنا مليحة
أنت وحدك فى الحريم بأسره
أمكنك أن تكونى خطرة علىّ،
لكنى ولدت للرغبة،
وأنت لا تقدرين على الحب مثلى
فلم تقلقين القلب الضعيف

بالجمال البارد؟
دعى جيرى لى؛ فهو ملكى،
قبلاه تلهب بى
أقسم لى أيماناً قوية،
من زمن، الأفكار كلها، الرغبات كلها
يشاركنى فيها جيرى...
تقتلنى خيانتة...
إننى أبكى، أترين، أحنى
الآن ركبناى أمامك
أبتهل، دون أن أجرؤ على لومك
امنحنى البهجة والسكنية،
امنحنى جيرى السابق...
لا ترفضى شيئاً لى،
هو ملكى، هو مبهور بك،
بالا زدراء، بالرجاء، بالملل،

بما تشائين أعيديه إلى،
اقسمي (ولو من أجل القرآن
فقد نسيت بين أسيرات الخان،
دين الأيام السالفة،
لكن دين أمي
كان مثل دينك) اقسمي لي به
بأن تعيدي لزارما جيري
لكن اسمي: أن توجب
نحوك... فأنا أملك خنجراً،
وولدت قرب القوقاز».

ما إن قالت، اختفت فجأة. وراءها
لا تجرؤ الأميرة على التعقب،
الفتاة البريئة لا تفهم،
لغة الرغبات المضنية،
لكن صوتها واضح في إبهام،

غريب عليها، مخيف لها
أى دموع وابتهاالات
تنقذها من الهوان؟
ماذا ينتظرها؟ احقاً ستقضى
بقايا أيام شبابها المر
رهينة مهانة؟
آه يا إلهى! لو أن جبرى
نسى التعيسة أبدا
فى زنانتها البعيدة
أو قطع أيامها الكثيرة
بنهاية سريعة!
لكم ستكون سعادة ماريا
بمغادرة الدنيا الحزينة!
لحظات الحياة الغالية
مضت من مدة، ليست موجودة من مدة!

ماذا عساها صانعة فى برارى الدنيا؟

لقد أزف وقتها، يترقبون ماريًا،

وفى السماوات فى علو الدنيا،

ينادونها بابتسامة قريبة.

* * * * *

مضت الأيام، ما من ماريًا

ماتت للتو اليتيمة.

صارت من زمن ضوءاً منشوداً

كانها ملاك جديد. أضاءت

لكن ما الذى قادها إلى الحتف؟

أحسرة الأسر اليائسة،

مرض، أم شر آخر؟

من يدري، ماريًا الرقيقة ليست موجودة!..

خلا القصر العتيد،

هجره جبرى من جديد
مع حشد التتار إلى الحد الغريب،
وجه هجمة شرسة من جديد،
هو من جديد فى العواصف الحربية
يندفع مكفهرًا، متعطشًا للدماء:
ولكن فى قلب الخان مشاعر أخرى
يتوارى لهب حزين.
هو عادة فى قتال قدرى
يرفع السيف، ويكل قواه
فجأة يبقى بلا حراك
يحملق حوله فى جنون،
يمتقع، كأنه يفيض ذعرًا
يهمس بشيء ما، وأحيانًا
يسكب الدمع الحار نهرًا.

الحريم المنسى، المستكين،

للاستهانة لا يشاهد وجهه

هناك، قدر عليهن العذاب

تحت حراسة الخصى الفاتر

تهرم الزوجات. بينهن

لا توجد الجورجية، فقد

قذفها حرس الحريم الأخرس*

فى لجة الماء.

فى تلك الليلة، ما إن ماتت الأميرة

حدث إيضا عذابها،

وأيا كان الذنب،

فقد كان العذاب فظيماً!

كاسحا بنيران الحرب

بلاذاً قريبة من القوقاز

* كان من العادات التركية التى أخذها التار هى صمت الخدم أمام السادة، ومن هنا يمكن فهم الوصف «الأخرس».

وقرى روسيا الآمنة،
عاد الخان إلى تافريدا.
وتخليداً لماريا الحزينة
أقام نافورة مرمرية
فى طرف القصر المنعزل.
يظلل أعلاه بشكل معقوف
الهلال المحدى
(رمز، بالطبع جسور
لذنب هين غير معروف)
يوجد إهداء: السنوات القارصة
لم تنل منه بعد.
وراء ملامحه الغريبة.
بخير الماء فى المرمر
ويقطر بدمع بارد،
دون أن يسكن ابداً

هكذا تبكى الأم فى أيام الحزن
ابنها شهيد الحرب.
البنات الشابات فى تلك البلاد
عرفن الحكاية القديمة،
فسمين النصب الحزين
نافورة الدموع.

ما إن غادرت الشمال أخيراً،
ونسيت المآدب طويلاً،
زرت باختشى سراى
القصر الغافى فى النسيان.
بين الممرات الصامته
تجولت هنا، حيث جلاذ الشعوب
الترى العاصف كان يقيم ولائمه
وبعد أهوال الغارة

كان ينعم بالكسل الفخيم.
ما يزال لوقتنا يتنسم ترفا
فى السكينة الخالية والحدائق،
تلهو المياه، تزهر الورود،
وتتخرج كرمات العنب،
وتبرق ذهبية على الجدار.
شاهدت المشربيات المتداعية
من خلفها، فى ربيعهن،
وهن يفرزن سباحهن الكهرمانية،
كانت الزوجات تنتهد فى سكون.
شاهدت مقبرة الخان،
دارة الحاكم الأخيرة.
أعمدة الضريح هذه،
تكملها عمامة مرمرية
بدت لى، وصية القدر

تقول قولاً جليلاً.

أين توارى الخانات؟ أين الحریم؟

كل شيء حولنا هادئ، كل شيء شجي

كل شيء تبدل... لكن ليس بذاك

الذي امتلأ القلب به آنذاك:

نسیم الورود، صخب النوافير

آلت إلى نسيان عفوى،

واستسلم العقل بلا إرادة،

لقلق غير مفهوم،

وبالقصر بظل طائر

لاحت أمامي فتاة!

* * * * *

ظل من، آه يا أصدقاء، شاهدته؟

أخبروني: أي صورة رقيقة

تعقبتهى آنذاك؟
أروح ماريا الطاهرة
تبدت لى، أم زارما
التي شاعت بغيرة الروح
بين الحريم المهمل؟

أذكر نظرة رقيقة كهذه
وجمال مازال دنيوى،
كل أفكار القلب تطير إليها،
اتشوق إليها فى المنفى...
يا مجنون! كفاك، توقف!
لا تحى الشوق العبثى،
فقد سددت إتاوة
الاحلام المتمردة للحب التعيس
ثب، يا سجين، يا مثقل،

أقدرت عليك أغلال القبلات

والبوح بجنونك

فى الدنيا بقيثارة متباهية؟

يا محب لرية الشعر، يا محب للدنيا

نسيت المجد والحب،

آه، سأراك قريبا من جديد،

يا شواطئ سالجيرا المتهجة،

سأتى عند سفوح الجبال الساحلية،

ممتلئا بالذكريات الخفية،

ومن جديد ستسعد

أمواج تافريدا نظرتى النهمة

الطرف السحري، سلوة العينين!

كل شىء حى هناك: التلال، الغابات،

الكهرمان، ياقوت الكروم،

جمال آوى للوديان
والسيل، وشجر الحور البارد،
كل شئ يغرى شعور الجوال،
فى ساعة الصباح المطمئنة،
حين يركض حصانه المعتاد،
فى ساعة الصباح المطمئنة،
فى الجبال، والطريق الساحلى،
والندى الأخضر
يرقص أمامه ويفج
حول صخور ايوداجا...

إلى نافورة باختشى سراى* (١٨٢٤)

نافورة الحب، نافورة حية!
أتيت إليك بوردتين هدية.
أحب هديرك الذى لا ينقطع
ودموعك الشعرية

عفارك الفضى
يرش على ندى باردا:
آه، فلتتدفق، وتتدفق أيها الينبوع السارا
ولتخر، وتخر لى بحكايتك

نافورة الحب، نافورة حزينة!
واستفسرت من مرمرك:

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٢، ص ١٨٣.

قرأت ثناءً على البلد البعيد،
لكنك عن ماريا صمت...

لجمة الحریم الشاحبة
احقا أنت هنا منسية؟
أم أن ماريا وزارها
حلما سعيذا فحسب؟

أم أن حلم الخيال وحده
رسم فی الظلمة الخلوية
لحظات رؤيتي،
ومثال مبهم للروح؟

"البلبل والوردة" (١٨٢٧) *

فى صمت الحقائق، فى الربيع، فى ظلمة الليل،
يشدو البلبل الشرقى أعلى الوردة.
لكن الوردة الحبيبة لا تشعر، لا تصغى،
تتمايل وتغفو أسفل النشيد العاشق.
لم تغن هكذا للجمال البارد؟
أفق، آه يا شاعر، فيم تطمح؟
إنها لا تسمع، لا تحس بالشاعر،
تنظر: إنها تزدهر، تنادى: ما من اجابة

* أ.بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج٣، ص ٨

آه يا فتاة، يا وردة، إننى فى الأغلال، (١٨٢٤) *

لكنى لا أخجل من أغلالك:

هكذا البلبل فى أشجار الغار،

ملك الطيور منشدى الغابة،

قرب الوردة الشامخة الرائعة

يعيش فى أسر عذب

ينشدها الأغانى فى حلاوة

فى ظلمة ليل الأهات.

* أ. بوشكين، ج٢، ١٨٥.

"التعويذة" (١٨٢٧) *

هناك، حيث البحر دائما يرتب
على الصخور المقفرة،
حيث القمر يتألق أكثر دفئا
في الساعة الحلوة في ظلام الليل،
حيث يقضى المسلم أيامه
مستمتعا مع الحريم،
هناك ساحرة بدعابة،
أعطتني تعويذة.
كانت تقول، وهي تلاطفني:
"حافظ على تعويذتي:
ففيها قوة سحرية!
معدة لك للحب.
من العلة، من القبر،

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٣ ص ٣٥-٣٦.

فى العاصفة، فى الزويدة المربعة
رأسك، يا عزيزى،
لن تنقذها تعويدتى.
وثروات الشرق
لن تهبها لك،
وعشاق النبى
لن تخضعهم لك،
والى حضن الصديق،
من البلاد الحزينة الغربية،
إلى ناحية الوطن إلى الشمال من الجنوب
لن تنطلق بك تعويدتى...
لكن إذا سحرتك فجأة
عيون غادرة،
أو شفتان فى ظلمة الليل
قبلتك من دون حب

فيا عزيزى ا من الجريمة،
ومن جروح القلب الجديدة،
ومن الخيانة، والنسيان
سوف تحميك تعويدتى.

القمر يسطع، والبحر ينام بلا حراك، (١٨٢٥)*

تصمت حدائق غسان الفاخرة.

لكن: من هناك يجلس فى عتمة الأشجار

على مرمر النافورة الحزينة؟

العبد الخصى، حارس الحريم الأشيب،

ومعه زميله الشاب،

«مسرور» عليل بحسرة النفس

لاتخفِ عني

نظراتك المتجهمة، وأنيك الساخط

وأحلامك الجامحة

فمذمدة حكوا الى كل شيء

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٢ ص ٢٧٨.

أعرف! حياتك شاقة.

وماذا يجدي شجنك؟

يا بني انصت للشيخ.

«من وحي العربي» * (١٨٣٥)

فتى جذاب، فتى دمث،
لا تخجل منى فنحن أهل،
وبداخلنا لهب عاصف،
ونعيش حياة واحدة.
لقد تآلفنا معاً:
تماماً مثل جوزة مزدوجة
أسفل قشرة واحدة

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٣ ص ٣٢٠.

تركنتى ليلى (١٨٣٦) *

مساء أمس دون اكتراث
قلت: توقى، إلى أين؟
فعارضتنى:
«رأسك أشيب»
قلت: للمتھمة المتعالية
«لكل أوانه»
فالذى كان مسكاً حالكاً،
صار الآن كافوراً»
لكن ليلى سخرت
من الحديث الفاشل
وقالت: «أنت تعلم:
أن المسك حلو لحديثى الزواج،
أما الكافور فيلزم النعوش.

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٣، ص ٣٤٤.

لِمَ هِيَ حزينه؟ (١٨٣٥) *

لم يعتصرها الحزن

ماذا بعد ينقصها

ملكة مصر القديمة؟

في عاصمتها البهية،

يحرسها حشد من العبيد،

وتحكم هي في سكينه.

يذعن لها آلهة الدنيا،

تمتلئ مخادعها بالمعائب.

يلتهب النهار الإفريقي،

ويزداد نضرة طيف الليل،

* كتبت هذ القصيدة من وحي كليوباترا وقد وردت في قصة بوشكين «قضيئنا الأمسية في الداتشا».

المؤلفات الكاملة لبوشكين، ج٦ ، ص ٤٠٦.

دائماً أبهة وأفانين
تطربها الأحاسيس الغافية،
الأرض كلها، وأمواج البحار كلها،
تحمل إليها في جباية الكسوة الجميلة
وهي تستبدلها بلا مبالاة،
تارة تتألق في بريق الياقوت،
وتارة تنتقى قميصاً أرجوانياً،
وتارة بمياه النيل الأشيب
تحت ظل الشراع الفخيم،
في مركبتها الذهبية،
تبحر بـ «كبريدا» الفتى.
ودائماً على مشهد منها
تستبدل الولايم بولايم،
فمن فطنت روحه،
إلى كل أسرار لياليها؟
عبثاً! يعاني قلبها في ضراوة،

إنه يتعطش للمتعة الغريبة
متعبة، مشبعة
مريضة هي باللامبالاة
وتنبهت كليوباترا من التفكير
وسكنت الوليمة، كما لو كانت تغفو،
ورفعت من جديد رقبتها،
واتقدت نظراتها المتعالية،
وقالت بابتسامة:
أليس في حبي لكم نعيم؟
انصتوا إذن لكلماتي،
يمكنني الغرض عن عدم التكافؤ
فربما تكون السعادة من نصيبكم،
إنني أدعو، فمن سيتقدم،
أنتي أبيع ليالي،
قولوا: من منكم يشتري ليلة مني
مقابل حياته؟

الرسول* (١٨٢٦)

يُضْنِينَا عطش الروح،
وفي الصحراء الموحشة تمددتُ
فظهر لى فى مفترق الطريق
سارافيم ذو الأجنحة الستة
وبأصابع خفيفة مثلما فى الحلم
لمس قرّة عيني:
فانفجرت مقلتي المتنبّتان،
كأنهما عينا نسرٍ مذعور.
ولمسَ أذناي
وملأها بالضجيج والطنين،
فأصغيت إلى رعدة السماء،
وتحليق الملائكة فى الأعالي،
وسريان حركة أغوار البحار،
ونبتة الكرمة فى الوادى.

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة جـ ٢، ص ٣٠٤.

انحنى على فمى،
وانتزع لسانى الأثم
الخامل والمراوغ،
وييده اليمنى المضرجة
وضع فى فمى المشدوه
حد الحية الحكيمة
وشق صدرى بسيفه
واقطلع قلبى المرتجف،
وأقحم فى صدرى المشقوق
جدوة متأججة النيران
فانطرحت فى الصحراء كالجنة
ونادانى صوت الله:
«انهض، يا رسول، وأبصر، وأصغ
لب إرادتى،
وجب البحار والأراضى
والهب بدعوتك قلوب الناس»

«قبسات من القرآن» * (١٨٢٤)

-١-

أقسم بالشفع وبالوتر،
أقسم بالسيف وبمعركة الحق،
أقسم بالنجم الصباح،
أقسم بصلاة العشاء:

لا، لم أودعك
يا من فى ظل السكينة
دست رأسه حبا،
وأخفيت من المطاردة الحادة؟

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٢ ص ١٨٨-١٩٣.

أست أنا الذى رويتك فى يوم قيظ

بمياه الصحارى؟

ألم أهب لسانك

سلطة جبارة على العقول؟

أصمد إذن وأزدر الخداع،

واتبع طريق الحق فى نشاط

أحب اليتامى، وقرآنى

ويشتر المخلوقات المهتزة.

-٢-

إيه، يا زوجات الرسول الطاهرات

إنكن تختلفن عن كل الزوجات:

فحتى طيف الرذيلة مفرع لكن.

فى الظل العذب للسكينة

عشن فى عفاف: فقد خلق بكن

حجاب الشابة العذراء.
حافظن على قلوب وفيه
من أجل هناء الشرعيين والخبجلى،
ونظرة الكفار الماكرة
لا تجعلنها تبصر وجوهكن.

أما أنتم، يا ضيوف محمد
وأنتم تتقاطرون على أمسياته،
أحذروا فبهرجة الدنيا
تكدر رسولنا.
فى تخلىق فكر المؤمنى
لاىحب هو الثرثارىن
وكلمات غير المتواضعىن والفارغىن:
شرفوا مآدبته فى خشوع،
وانحنوا فى أدب
لزوجاته الشابات المحكومات.

-٣-

ونجهم الرسول، وهو يتململ

بعد أن أحس دنو الأعمى:

ويسرع، لكن الرسول لا يقدر

أن يظهر له الحيرة.

لأنه مع الكتاب السماوى معطى وثيقة

لك يا رسول، لا للخارجين،

بشر بالقرآن فى سكنية،

دون أن تجبر الكفار!

علام يتغطرس الإنسان؟

على أنه جاء إلى الدنيا عارياً،

على أنه يستنشق دهنأ قصيراً،

وأنه سيموت ضعيفاً، مثلما ولد ضعيفاً؟

ألا يعلم أن الله سميته
ويبعثه بمشيئته؟
وأن السماء ترعى أيامه
فى السعادة وفى القدر الأليم؟

ألا يعلم أن الله وهبه الثمار،
والخبز، والتمر، والزيتون
ثم بارك جهوده
فوهبه البستان، والتل، والحقل؟

لكن الملاك سينفخ فى البوق مرتين،
وسيدوى على الأرض رعداً سماوياً:
وسيفر الأخ من أخيه،
ويبتعد الابن عن أمه.
ويمثل الجميع أمام الله،

صرعى من الرعب،

ويسقط الكفار

ينغيهم اللهب والعفار.

-٤-

معك فى القديم، يا قادر،

يا عظيم توهم أن يتبارى،

ممتلئاً بالكبرياء المجنونة،

ولكن أنت يا إلهى، أفحمته.

انت (تقول): أنا اهب العالم الحياة،

وأعاقب الأرض بالموت

فيدى مبسوطة على كل شىء.

وأنا كذلك، قال هو، اهب الحياة،

وأعاقب أيضاً بالموت:

فأنا يا رب، نذل لك.

لكن خيلاء الإثم خفت

من كلمتك الغاضبة:

سأرفع الشمس من المشرق،

فأرفعها أنت من المغرب!

-٥-

الأرض ساكنة، السماء بلا عمد،

الخالق الذى يدعمك،

اجل لن يسقط السيل على اليابس

ولن يسحقك به

لقد أضأت الشمس فى الكون،

وأضأت أيضا السماء والأرض،

مثل نبتة كتاب تمتلئ بالزيت،

تضىء فى مصباح بلورى

صل للخالق، فهو القادر

فهو يحكم الريح، فى يوم قانظ

ويرسل السحب إلى السماء،

ويهب الأرض ظل الأشجار،

إنه الرحيم: قد كشف

لمحمد القرآن الساطع،

فلتنساب نحن أيضا نحو النور،

ولتسقط الغشاوة عن الأعين.

-٦-

ليس باطلاً أن حلمت بكم

في معركة، وراءكم مخلقة،

وسيوفكم مضرجة،

في خنادق، وفي بروج، وعند الأسوار

انصتوا إلى الدعوة المبتهجة،

يا أبناء الصحارى الملتهبة!

سوقوا إلى الأسر الإماماء الشباب،
اقتسموا غنيمة الحرب!

لقد انتصرتم: فالمجد لكم،
ويا للسخرية من ضعف النفس.
فنداء الحرب لم يلبوه،
ولم يصدقوا الأحلام الرائعة.

تفتنهم غنيمة الحرب
وهم الآن في ندم،
يقولون: خذونا معكم،
لكنكم ستقولون: لن نأخذكم.

الشهداء الساقطون في المعركة:
هم الآن في الجنة

يفرقون في نعيم

لا ينفصه شيء.

-٧-

انهض أيها الرجل:

ففي كهفك،

مصباح مقدس

يضيء حتى الصباح.

وبصلاة خالصة،

تُنحى، يا رسول

الأفكار الشجية،

والأحلام المداعبة

واقم الصلاة في

خشوع حتى الصباح،

والكتاب السماوي

اقرأ حتى الصباح!

-٨-

وأنتم تُتاجرون بضميركم أمام الفقر المدقع،
لاتنثر هباتك بيدٍ مقتصدة:
فالسماء تبغى الكرم الوفير.
ففى يوم الحساب العسير، ومثل حقل خصيب
آه يا نائر الخير،
ستجازى أعمالك بأعظم الجزاء.
لكن إذا، أسفت على عطاء الدنيا المكتسب،
وانت تناول السائل عطاءك الشحيح،
وضيقت من بسطتك الغيور،
فاعرف: أن كل هباتك، مثل حفنة تراب،
غسلها مطر وفير عن حجر،
سُتمحى، وينبذ الرب العطاء.

-٩-

وتذمر إلى الله عابر السبيل المتعب

فقد أضناه الظمأ والحنين إلى الظل،
وضل في الصحراء ثلاثة أيام وثلاث ليال،
وأرهم القيظ والغبار مقلتيه
ويحسرة يائسة استدار حوله،
فشاهد فجأة بئراً تحت النخلة.

فأسرع الخطى نحو نخلة الصحراء،
وبتبار بارد روى في نهم
لسانه وقرت عيناه شديداً الالتهاب،
ورقد، وغفا قرب حماره الوفي
ومرت فوقه سنوات طويلة
بمشيئة ربّ السماء والأرض

ثم أتت للعابر ساعة الاستيقاظ،
فنهض وسمع صوتاً غير مرئي:

«أُثمت عميقاً في الصحراء من زمن؟»

فيجيب: ها هي ذى الشمس عالية

كانت تسطع البارحة في سماء الصباح

نمتُ عميقاً من الصباح حتى الصباح.

لكن الصوت: «آه يا عابر، لقد نمت اطول،

انظر: رقدت شاباً ونهضت كهلاً،

وقد فنيت النخلة، أما البئر الباردة

فقد نضبت وجفت في الصحراء القاحلة،

وطمرته من زمن رمال السهول،

وابيضّت عظام حمارك»

واحتوى العجوز حزن خاطف

وانتحب وهو ينكس رأسه المهترئة...

وآنذاك حدثت معجزة في الصحراء:

فقد بُعث العابر في حسن جديد،
ومن جديد تأرجحت النخلة برأسها الظليل،
ومن جديد سرت في البثر برودة المياه

وانتصبت عظام الحمار المتداعية،
واكتسى الجسد، وأصدر النهيق،
وأحس العابر بالقوة، والبهجة،
وتألق في دمائه الشباب المتفجر
وملأ صدره الانشراح المقدس:
وانطلق مواصلاً طريقه مع الله.

«الشیطان» * (١٨٢٣)

فی تلك الأيام، حین كان جدیداً بالنسبة لى
كل انطباعات الوجود
ونظرات الشابات، وضجيج البلوط،
وغناء البلیل لیلاً،
حین كانت المشاعر السامية
الحرية، المجد والحب
والفنون الملهمة
كانت تقلق الدم بشدة،
ساعات الآمال والمتع
والحسرة على الخریف المباحث
آنذاك كان يعاودنى سرأ

* أ. بوشكين، المؤلفات الكاملة، جـ ٢ ص ١٤٤.

متمثلاً لى فى حنق
وكانت لقاءاتنا حزينة:
ضحكته، نظراته العجيبة،
أحاديثه اللاذعة
كانت تسكب فى الروح السم البارد.
وبوشاية لاتنضب
كان يوسوس بنبوءة.
كان يستصرخ الحلم الرائع
كان يزدري الإلهام
لم يكن يؤمن بالحب، بالحرية
كان ينظر إلى الحياة فى تهكم
وما من شىء فى الطبيعة كلها
فى مباركتة كان راغباً.

الفهرس

5	تقديم: ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)
	(الإنسان والفنان)
49	١- قصائد عن الحرية، والعدالة، والشاعر والكلمة:
50	- شيدت لنفسى نصبا لم تصنعه يد
52	- الحرية
60	- إلى تشاداييف
62	- السجين
63	- فى عمق مناجم سيبيريا
65	- القرية
70	- الشاعر والجمع
74	- إلى الشاعر
76	- صدى
77	٢- مختارات من «شرقيات بوشكين»

تقديم وترجمة بؤيا «نافورة باختشى سراى، الشهير⁷⁷
«بنافورة الدموع».

88 - نافورة باختشى سراى

129 - إلى نافورة باختشى سراى

131 - البلبل والوردة

132 - آه يا فتاة يا وردة.. إننى فى الأغلال

133 - التعويذة

136 - القمر يسطم والبحر ينام بلا حراك

138 - من وحى العربى

139 - تركتنى ليلى

140 - لمْ هى حزينه «كليوباترا»

143 - الرسول

145 - قبسات من القرآن

159 - الشيطان

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غوليمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأرنؤى وعمر طى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صعد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحادثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتين	ت : حياة جاسم محمد
راحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزوج	أوكتايفيو پاث	ت : المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أفين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الملود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجنون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الفنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمسة مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأنبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
بوشكين عند «نافورة الدموع»	الكسندر بوشكين	ت : مكارم الفمري
شعرية التأليف	بوريس أوسبينسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شبيحة

(نحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت	ثلاث زنبقات ووردة
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	الأدب الأندلسى
تاريخ السينما العالمية	الأدب المقارن
مختارات من المسرح الإسباني	راية التمرد
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	السياسة والتسامح
الابتلاء بالتغرب	مسألة العولة
الحب الأول	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى
أوبرا ماهوجونى	الفجر الكاذب
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	الشعر الأمريكى المعاصر
حروب المياه	مدخل إلى النصل الجامع

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٥١٠ / ١٩٩٩

بوشكين عند ذافورة الدموع ومختارات أخرى

«بداية البدايات» «شاعر عظيم لكل الشعوب وكل العصور» و
«شمس الشعر الروسى التى لا تغرب» .

هذه العبارات قيلت فى وصف شاعر روسيا الأكبر ألكسندر
بوشكين ، وهى قرينة الصلة بالمكانة المضيئة والخالدة التى يحتلها
إنتاجه الأدبى الذى يبرز بوصفه ظاهرة فنية حوت بداخلها أهم
تيارات الأدب الروسى ، فقد جسّد إنتاج بوشكين منعطفات
تاريخية فى حركة التيار الأدبى فى روسيا من الكلاسيكية إلى
الرومانتيكية ، ثم إلى الواقعية .

وبوشكين هو نموذج الفنان الشامل ، والشاعر القومى الحق ،
المخلص للكلمة الحرة الصادقة التى جمعت بين الفنية العالية
والمضمون الثرى ، وهو أيضاً مثال الفنان المبدع المجدد الذى كان
له الفضل فى إرساء ضروب وموضوعات جديدة فى الأدب الروسى
ورغم إخلاصه لكل ما هو قومى حق جاء إنتاج بوشكين معبراً
عن رد الفعل العالمى ، والاستيعاب الإبداعى لثقافات الشرق والغرب ،
وتمثل ثقافات الشعوب والعصور التاريخية المختلفة .

Bibliotheca Alexandrina



0438186

